غزوات الرسول

صلى الله عليه وسلم

تأليف

صلاح الدين محمود السعيد

الناشر
دار البيان العربي



غزوات الرسول

صلى الله عليه وسلم

اسم الكتاب : غزوات الرسول ﷺ

اسم المؤلف : صلاح الدين محمود السعيد

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤

عدد الصفحات : ١١٢ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٢٢٦٠٨ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي

الأزهر / درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

(آل عمران: ١٠٢)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١) .

أما بعـــد:

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

وبعـــد:

أحبائى الكرام أقدم لكم فى هذا الكتاب قبسًا من حياة النبى ﷺ يتعلق بحروبه وغزواته وسراياه ﷺ فإن هذه الغزوات شرف المؤمن وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أطفالهم غزوات الرسول ﷺ وأسأل الله عز وجل أن ينفعنى وإياكم بها وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

الإذن بالقتال

سرايا الرسول ﷺ:

سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه غزوة ــ حارب فيها أم لم يحارب ــ أما ما خرج فيه أحد قادته فيسمى سرية.

ونبدأ بالسرايا الأولى فى قتال المسلمين وجهادهم.

سرية سيف البحر:

وهى بقيادة حمزة بن عبد المطلب فى شهر رمضان سنة ١ هجرية وقد أمر رسول الله ﷺ حمزة على هذه السرية وبعثه فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترض إيلاً لقريش جاءت من الشام وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل فبلغوا سيف البحر فالتقوا واصطفوا للقتال فدخل بينهم رجل يقال له: مجدى بن عمرو الجهنى، كان مرغوبًا من الفريقين وحليفًا للفريقين لا ينحاز للمسلمين ولا للكفار فحجز بينهم فلم يقتتلوا، كان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ وكان أبيض وحمله مرثد بن كناز بن حصين.

وعاد حمزة برجاله إلى المدينة بعد أن بث الرعب فى نفس المشركين فأحسوا بالخطر الشديد الذى ينتظرهم من المسلمين فى المدينة ويهدد طريق تجارتهم.

غزوة الأبواء:

وفيها خرج الرسول ﷺ بنفسه فى صفر ٢هـ بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة خرج ﷺ فى سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيرًا لقريش حتى بلغ وران وهى موضع بين مكة والمدينة.

فلم يلق الرسول ﷺ قتالاً فى هذه الغزوة بل عقد معاهدة وحلفًا مع سيد بنى ضمرة واسمه عمرو بن معشى وكان نص المعاهدة: هذا كتاب من محمد رسول لبنى ضمرة فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من عاداهم إلا أن يحاربوا دين الله وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصرة أجابوه[١] وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ وفيها غاب خمس عشرة ليلة وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب.

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٧٥.

غزوة بواط:

وفيها خرج الرسول ﷺ فى مائتين من أصحابه يعترض قافلة لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائه رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير فلما وصل إلى هناك لم يلق حربًا وكان اللواء أبيض وحامله سعد بن أبى وقاص ﷺ.

غزوة صفوان:

وسبب هذه الغزوة أن رجلاً من المشركين هجم على مراعى المدينة ونهب بعض المواشى وهذا الرجل اسمه كرز بن جابر الفهرى فخرج رسول الله ﷺ إليه فى سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته حتى بلغ واديًا اسمه وادى صفوان من ناحية بدر ولكنه لم يلحق كرزًا وأصحابه فرجع بدون حرب وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى واستخلف الرسول ﷺ على المدينة فى هذه الغزوة حين خروجه زيد بن حارثة وكان اللواء أبيض وحامله على بن أبى طالب.

غزوة ذى العشيرة:

كانت فى جمادى الأولى وجمادى الآخرة سنة ٢هـ خرج رسول الله ﷺ فى مائة وخمسين رجلاً ويقال: فى مائتين من المهاجرين ولم يجبر أحدًا من المسلمين على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها أى يركب بعضهم وينزل البعض ماشيًا وخرجوا لاعتراض قافلة لقريش فلما بلغ ذى العشيرة وجد القافلة قد فاتته وهى القافلة التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام وكانت سببًا فى غزوة بدر.

سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى بطن نخلة:

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

صلى رسول الله ﷺ العشاء الأخيرة وقال لعبد الله بن جحش: أريدك مع الصبح ومعك سلاحك أبعثك وجهًا.

أطاع عبد الله بن جحش رسول الله ﷺ فوافاه الصبح ومعه قوسه وجعبته ودرقته فلما انتهى الرسول ﷺ من صلاة الصبح وهمَّ بالانصراف وجده واقفًا عند بابه فدعا الرسول فدخل عليه أبى فأمره فكتب كتابًا فدعا عبد الله بن جحش ﷺ فأعطاه الرسالة أو الكتاب وقال له ﷺ قد استعملتك على هؤلاء النفر ثم نظر إلى الناس وقال: لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم لكنه أصبركم للجوع والعطش هذا هو القائد، قائد السرية كما وصفه رسول الله ولكن قبل أن نبدأ لا بد أن نتعرف على القائد:

١- عبد الله بن جحش أمه أميمة بنت عبد المطلب أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم فهو من السابقين الأولين كان هو وأخوه أبو أحمد عبد بن جحش من المهاجرين الأولين فممن هاجر الهجرتين وأختهم زينب بنت جحش زوج رسول الله ﷺ وأم المؤمنين.

وكان عبد الله بن جحش ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه أبو أحمد وعبيد الله بن جحش ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا واستشهد يوم أحد يعرف بالمجدع فى الله لأنه مثل به يوم أحد وقطع أنفه، ومما يروى عنه يوم أحد أن سعد بن أبى وقاص قال له يوم أحد: ألا تأتى فندعو الله «فخلوا فى ناحية فدعا سعد وقال: يا رب إذا لقيت العدو غدًا فلقنى رجلاً شديدًا بأسه شديدًا قتاله أقاتله فيك ويقاتلنى ثم ارزقنى عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه» .

وقال عبد الله بن جحش: اللهم ارزقنى غدًا رجلاً شديدًا بأسه وقتاله أقاتله فيك فيقاتلنى فيقتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى وإذا لقيتك قلت: يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفى رسولك، فتقول: صدقت.

وها هو سعد يقول: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتى لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقتان فى خيط وقد قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق الثقفى وقد جاوز الأربعين عامًا من عمره ودفن وحمزة رضوان الله عليهما فى قبر واحد.

المهمة:

بعد أن استعرضنا حياة القائد نعود لنتابع قصة سرية تعد من السرايا الأوائل بعد هجرة الرسول ﷺ.

الاستيعاب ج٢ ص٢٦٣، ٢٦٤.

والراجح أن السرايا الأولى إنما قصد بها إفهام قريش أن المصلحة تقتضى التفاهم مع المسلمين من أهل مكة الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد تفاهما يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام وقد كانت هذه التجارة التى تبعث بها مكة والطائف جميعًا والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب تجارة واسعة النطاق حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار كانت صادرات مكة السنوية توازى مائتين وخمسين ألفًا من الدنانير [١] فإذا أيقنت قريش تعرض هذه التجارة للخطر آتيا من أبنائها من الذين هاجروا إلى المدينة دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم تفاهمًا طمع المسلمون فى أن يحقق لهم ما كانوا يطمحون إليه من حرية الدعوة إلى دينهم وحرية الدخول إلى مكة والطواف ببيتها العتيق ولم يكن هذا التفاهم ممكنًا ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها وإيصاد طريق التجارة فى وجهها وقد حرص الرسول بصدد هذا الأمر من بعد ما ظهر من صلف قريش وتعنتها وعدم اعتدادها بقوة المهاجرين حرص ﷺ على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة والتحالف معها تحالفًا نما خبره إلى قريش لعلها تعود إلى التفكير والتفاهم.

وقد رغب الرسول ﷺ فى تعزيز وتقوية المدينة ومجتمعها من أى عدوان خارجى ولعله ﷺ رمى من هذه إرهاب يهود المدينة حتى لا يتمردوا على رسول الله وأصحابه وقد حدث أن دبروا المكائد والدسائس ولكن الله نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

ولنبدأ رحلة عبد الله بن جحش بعد هذا الحديث فقد بعثه رسول الله ﷺ فى رجب من تلك السنة ودفع له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره فيمضى لما أمره ولا يكره من أصحابه أحدًا أى لا يرغم أحدًا منهم على شىء لا يريده ولا يرغب فيه.

وبعد يومين فتح عبد الله الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة (وهى بين مكة والطائف) فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم» [٢].

---

(١) انظر حياة محمد د/ هيكل ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٦٢.

وعلم أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحدًا منهم فمضوا معه جميعًا عدا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يبحثان عن بعير لهما ضل فأسرتهما قريش وأكمل عبد الله ومن معه من المسلمين المهاجرين بعد أن قالوا له: «نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك فسر على بركة الله تعالى .

أجاب عبد الله مؤكدًا المعنى بقوله: يا أخوة الإسلام من كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض إلى أمر رسول الله ﷺ، فمضوا ولم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا بجران[١] وفى هذا الموضع ضل سعد بن أبى وقاص وصاحبه عتبة بن غزوان الطريق لبحثهما عن بعير ضل الطريق فأسرتهما قريش وانطلق عبد الله ومن معه حتى نزلوا ببطن نخلة فمرت بهم عير من قريش تحمل تجارة وأمتعة من الطائف وكان فى تلك القافلة عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة وأخوه نوفل بن المغيرة والحكم بن كيسان.

وكان هذا اليوم هو الأخير من شهر رجب فى هذه السنة الهجرية وجلس عبد الله بن جحش وأصحابه ممن معه من المهاجرين يتذاكرون ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا وقال بعضم لبعض: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام».

وترددوا وهابوا الهجوم عليهم ولكنهم تشجعوا وشجعوا أنفسهم عندما قال عبد الله بن جحش: لقد خاف القوم منكم وذعروا فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم، حتى يظنوا أنهم يقصدون العمرة بمكة ويبدأ الهجوم مباغتًا مفاجئًا.

فحلق عكاشة بن محصن رأسه وخرج على القوم وتراءى لهم حتى يقول القرشيون إنهم عمار ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتلوه وقد رماه واقد بن عبد الله بسهم، ويعد الحضرمى أول قتيل قتله المسلمون وأسروا عثمان بن المغيرة والحكم بن كيسان وأفلت بقية القوم وهربوا إلى مكة ووافوهم بأخبار أصحابهم.

واستاق عبد الله بن جحش وأصحابه ﷺ أجمعين العير وما غنموا من قافلة قريش وعادوا إلى المدينة وفى الطريق قال عبد بن جحش لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ فيما

---

(١) السيرة الحلبية: ص ١٤٠، ١٤١.

غنمنا الخمس فأخرج خمس الغنائم لرسول الله ﷺ وعزلها له وقسم بقية الغنائم بين أصحابه رضى الله عنهم.

وأنزل الله سبحانه عز وجل آية الخمس يقول عز وجل: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١).

ومما يذكره الرواة أن عبد الله بن جحش أول من خمَّس فى الإسلام قبل نزول الآية الكريمة فى سورة الأنفال[١] وبعضهم يقول: إنها أول غنيمة خمست فى الإسلام، ووصلت قافلة عبد الله بن جحش إلى المدينة ومعهم العير التى غنموها فلما قدموا على رسول الله ﷺ ورآهم قال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ووقف ﷺ العير التى غنموها والأسيرين عثمان والحكم وأبى أن يأخذ من كل ذلك شيئًا سواء الذى خمسه له عبد الله بن جحش أو غير ذلك.

أسقط فى يد عبد الله بن جحش وأصحابه رضوان الله عليهم وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا وعاتبوهم على القتال فى الشهر الحرام وكانت فرصة رائعة لقريش كى يغلطوا الحقائق، انتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية لتكسب القبائل إلى جانبها بعد أن ضعفت حجتها ونادت فى كل مكان ونشرت أبواق دعايتها فى كل مكان يمكن أن يسمع فيها صوتها نعم فقد نادت فى كل مكان تقول: إن محمدًا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا فى شعبان وأشاعت قريش أنه قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، سفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ثم نادوا فى مسلمى مكة: يا معشر الصباة قد استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه، وزادوا فى التشنيع والتعبير وصارت اليهود تريد إشتعال الفتنة وتتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ فيقولون: القتيل عمرو الحضرمى والقاتل واقد بن عبد الله فبه حضرت الحرب ووقدت الحرب.

---

(١) ابن عبد البر فى الاستيعاب.

ضاق الأمر على عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم فأنزل اله سبحانه عز وجل قوله الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٧)، أى عظيم الوزر ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى ومنع للناس عن دين الله ﴿ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ ﴾ أى بالله عز وجل ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أى وضع للناس بمكة ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ ﴾ والمقصود بهم النبى ﷺ ومن معه من المؤمـــنين ﴿ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أعظـــم وزرًا ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ وسرى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر وأخذ النبى العير والأسيرين فافتدتهما منه قريش فقال ﷺ: «ولا نقبل الفداء حتى يقدم صاحبانا يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبه بن غزوان فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم»(١).

وقد أراد عبد الله بن جحش أن يقتل الحكم فنصحه أحد أصحابه وهو المقداد بأن يتركه فتركه فقدم على رسول الله ﷺ فى المدينة وأسلم، وأما عثمان فلحق بأهله بمكة فمات كافرًا على دين آبائه.

وقد كانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة الإسلام فهى حادث جديد من نوعه يدل على روح قوى فى سموه إنسانى فى قوته ينتظم نواحى الحياة المادية والمعنوية والروحية كأشد ما يكون النظام قوة ورفعة وتوجهًا إلى الكمال فالقرآن يجيب المشركين عن سؤالهم عن القتال فى الشهر الحرام أهو من الكبائر ويقرهم على أنه كذلك أمر كبير لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر فالصد عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام والقتل فيه.

والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام.

وقريش والمشركون الذين يعتبون على المسلمين ما قتلوا فى الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا فإذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعًا فيصدون عن سبيل الله ويكفرون به ويخرجون

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص١٤٣.

أهله منه ويفتنونهم عن دينهم فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم فى الشهر الحرام وإنما الكبيرة أن يقاتل فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزرًا»(١).

وقد عرفنا من هذه السرية أن الجهاد فى سبيل الله له معنى صريح على نحو ما ورد فى الآيات التالية: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠) ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ونرى فى معنى الآيات معنى صريحًا للجهاد فقد رغبت قريش أن تفتن المسلمين عن دينهم ورأيهم بالدعاية وتشويه الصورة والإمساك برأى ظاهر دون معرفة بواطن الأمور وما تنطوى عليه النفوس.

لقد نفخ اليهود نفخًا شديدًا فى الأمر وظنوا أنهم سيعيدون الكرة بما فعلوا فى المدينة مع الأوس والخزرج فجعلوا الحرب بينهم دائمة ولكن الله مظهر الحق وباسطه.

غزوة بدر:

فى السنة الثانية من الهجرة، وتحديدًا فى السابع عشر من رمضان، وقعت غزوة بدر.

وقبل أن نمضى فى سرد أحداث تلك الغزوة ونتائجها نعود إلى الوراء قليلاً قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، لنتذكر سويًا موقف أهل قريش (زعيمة الكفار والمشركين) من رسولنا الكريم ﷺ ودعوته إلى الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد، وموقفهم ممن أسلم وآمن بالله وبالدعوة المحمدية.

فقد بقى رسولنا الكريم ﷺ ثلاث عشرة سنة فى مكة منذ بعثه الله نبيًا، دعا خلالها أهل مكة إلى الإسلام فصدق به جماعة من الناس، أكثرهم من الفقراء والعبيد، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

أما أشراف مكة وأغنياؤها، فقد استكبروا وأبوا أن يتركوا دين آبائهم والأصنام التى ورثوا عبادتها عنهم، والتى لا تنفعهم أو تضرهم، ولم يكتفوا بعدم الاستجابة لما يدعوه إليه محمد ﷺ من عبادة الله الواحد الأحد، دون أن يشركوا به شيئًا، بل راحوا يعادونه ويؤذونه، ويضعون فى طريقه الأقذار والأشواك، وتمادوا فى طغيانهم وألقوا

---

(١) انظر حياة محمد د/ محمد هيكل ص ٢٦٣.

عليه أمعاء شاة مذبوحة وهو يصلى فى المسجد الحرام (الكعبة) ... كل هذا ورسولنا الكريم صابر ولا يقول إلا: اللهم اهد قومى إلى الإسلام.

وبالغ أشراف قريش وزعماء الكفر والشرك بالله فى إيذاء أصحاب رسول الله ﷺ وتعذيبهم، لكى يعودوا إلى عبادة الأصنام، ولا يتبعوا الدين الجديد... ولكنهم أبوا أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من كفر وضلال.

ولما اشتدت وطأة الإيذاء والتعذيب، هاجر بعض المسلمين الأوائل إلى الحبشة، وأرسلت قريش وراءهم من يسعى لدى النجاشى (حاكم الحبشة) ليعيد المسلمين إلى بلادهم ولا يستقبلهم أو يؤمنهم فى بلاده.

إلا أن ذلك المسعى فشل!.

بعدها قرر سادات قريش أن يحاصروا رسول الله ﷺ وعشيرته (بنى عبد المطلب وبنى هاشم) ويحبسوهم فى بيوتهم ويحرمونهم من الطعام والشراب حتى يموتوا، وحرموا على الناس أن يبيعوا لهم أو يشتروا منهم شيئًا، وكتبوا بذلك صحيفة (اشتهرت بصحيفة المقاطعة) علقوها على جدار الكعبة.

واستمر ذلك الحصار ثلاث سنوات، كاد رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين أن يموتوا جوعًا إلى أن رقت قلوب بعض رجال قريش ففكوا حصارهم وأنهوا مقاطعتهم.

كل ذلك والرسول ﷺ وأصحابه صابرون مستمسكون بدينهم.

وبينما كان رسولنا الكريم ﷺ يعرض الإسلام على وفود القبائل التى كانت تأتى إلى مكة، إذا بوفد من أهل يثرب يأتى إلى مكة ويسعى لرؤية الرسول ﷺ الذى كانوا قد سمعوا عنه.

ودعاهم الرسول إلى الإسلام وكانت استجابتهم سريعة فأسلموا، وكانت بيعة العقبة الأولى، ثم كانت بيعة العقبة الثانية، التى بايع فيها ثلاثة وسبعون شخصًا من يثرب (المدينة) الرسول ﷺ على أنه نبيهم وزعيمهم، ودعوه فى الوقت نفسه للهجرة إلى مدينتهم.

وبالطبع اشتدت عداوة قريش للرسول ﷺ وللمسلمين، بعدما علمت بتلك المبايعة، وبعدما علمت بعزم الرسول ﷺ وأصحابه الهجرة من مكة والذهاب إلى المدينة وترك المسلمون كل ما يملكون فى مكة، وفروا بدينهم إلى المدينة، التى استقبلتهم أحسن

استقبال، وأعطاهم أهلها (أو الأنصار) بيوتًا يسكنون فها وأموالاً ينفقون منها، وعاهدوهم على أن ينصروهم ويدافعوا عنهم ولا يسلموهم إلى كفار مكة أبدًا.

بعدها أخذت قريش فى إرسال فرسانها ومقاتليها لقطع الطريق فى الصحراء قرب المدينة، ليس ذلك فحسب، بل إنهم كانوا يغيرون على المراعى بقصد الاستيلاء على الابل التى ترعى فيها...

وهكذا لم تكتف قريش بإيذاء المسلمين والعدوان عليهم فى مكة وراحت تسعى وراءهم، عندما هاجروا إلى المدينة بفرض القضاء عليهم.

فاستقرار المسلمين بالمدينة، كان يعنى أن تصبح المدينة مركزًا إسلاميًا حرًا طليقًا، وهذا المركز بالإضافة إلى تهديده لقريش وزعامتها الدينية لمن يعبدون الأصنام، يهدد تجارتها الصاعدة والهابطة بين مكة والشام.

والآن... ماذا عن غزوة بدر (أو موقعة بدر بالمفهوم الحديث)؟.

... كان أبو سفيان يقود قافلة تجارية لقريش فى طريق عودتها من الشام وعلم رسول الله ﷺ بذلك، وقرر أن يقطع الطريق على تلك القافلة، ويستولى عليها، ليثبت لقريش أن المسلمين ليسوا ضعفاء وأنهم ذوو منعة وقوة، وليسوا مستضعفين أو أذلاء كما كان حالهم فى مكة قبل هجرتهم إلى المدينة.

وكان الرسول ﷺ يريد الاستيلاء على القافلة نظير أموال المسلمين التى سلبتها قريش بعد هجرتهم عن مكة.

خرج الرسول ﷺ فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وسلكوا الطريق المؤدية إلى بدر (وكانت بدر تمر عليها جميع القوافل القادمة من الشام).

وكان عدد الدواب التى خرج بها السلمون فرسين وسبعين بعيرًا يتناوبون الركوب عليها، فكان رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى لهم بعير يتناوبون ركوبه.

فقالا له: ... يا رسول الله، اركب أنت هذا البعير، ونحن نسير بدلاً منك.

فقال لهما رسول الله ﷺ: ... ما أنتما بأقوى منى، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما!

وعلم أبو سفيان بأمر خروج الرسول ﷺ، لقطع الطريق على قافلته، فأرسل إلى قريش يخبرها بالأمر ثم غير طريقه وسار فى طريق القوافل المعتاد.

فخرجت قريش فى تسعمائة وخمسين مقاتلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير محملة بالزاد والعتاد.

وبينما هم فى الطريق إذ أرسل إليهم أبو سفيان، بأنه أفلت من محمد ﷺ ورجاله، وطلب منهم الرجوع.

فقال أبو جهل: والله ما ترجع حتى نصل بدرًا، ونقيم بها ثلاثة أيام، وتسمع العرب بنا وبمسيرتنا هذه فتخشنانا طيلة الدهر، وساروا حتى وصلوا بدرًا.

وعلم الرسول ﷺ بأن قريشًا قد خرجت من مكة فى جيش ضخم وتسعى لملاقاته.

فأخبرهم ﷺ بالأمر، وقال لأصحابه: أشيرونى، فقال له أبو بكر ﷺ: سر على بركة الله... نحن معك سنقاتلهم.

وقال له عمر ﷺ مثل ما قال أبو بكر.

ثم قال له رجل يدعى المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض بنا لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان فى أقصى اليمن) لجادلنا معك (أى قاتلنا بشدة) من دونه حتى تبلغه.

فقال له الرسول ﷺ: خيرًا، ودعا له، ثم خاطب أهل يثرب الذين بدا أن بعضهم لا يريدون الحرب، وقال لهم: أشيروا على أيها الناس.

فنهض سعد بن معاذ (سيد الأوس) وقال: والله يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا على ما جئت به من الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

فأشرق وجه رسولنا الكريم ﷺ وقال: أبشروا والله إنى أرى مصارع القوم.

وسار جيش المسلمين، حتى اقتربوا عند بدر، وتوقفوا فى أقرب مكان من ماء بدر.

فاقترب الحباب بن المنذر من رسول الله ﷺ وسأله: يا رسول الله، أهذا المكان أمرك الله به، أم هى الحرب والمكيدة؟.

فقال رسول الله ﷺ: بل هى الحرب والمكيدة.

فقال الحباب: إن هذا المكان لس بآمن... فلنمض بالناس إلى أقرب مكان من الأعداء ونجعل الماء خلفنا وليس أمامنا، ثم نقاتلهم، فنشرب ولا يشربون.

فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأى.

ثم قال: أيها الناس... إن أمركم شورى بينكم.

ونفذ ما أشار به الحباب.

وتواجد الجيشان: جيش المسلمين وجيش الكفار.

وفجأة برز من جيوش الكفار (أو من قريش) ثلاثة فرسان يعدون من خيرة الفرسان هم: عتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبة بن ربيعة.

وعتبة هذا هو جد معاوية بن أبى سفيان لأمه، فهو أبو هند زوجة أبى سفيان، والوليد أخوها، وشيبة عمها.

وصرخوا: من يبارز؟.

ولم يكن من الممكن أن يحتمل المسلمون هذا التحدى، وهم الذين هانت عليهم الدنيا، وضحوا بأغلى ما فيها، بالمال والبنين من أجل العقيدة.

فاندفع من جيش المسلمين ثلاثة اختارهم الرسول ﷺ، هم عمه حمزة بن عبد المطلب، وابنى عمه عبيدة بن الحارث وعلى بن أبى طالب.

وأسفرت المبارزة عن قتل الكفار الثلاثة.

والتحم الجيشان، وأخذ النبى يدعو الله ويستغيث قائلاً: «اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها تعاديك وتكذب رسولك... اللهم نصرك الذى وعدتنى... اللهم إن يهلك المسلمون اليوم لا تعبد فى الأرض».

فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

وكان الله فى عون المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

وكان الرسول ﷺ يحرض على القتال ويقول: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

فسمعه عمر بن الحمام، وكان فى يده بضع تمرات يأكلهن فقال:... بخ بخ أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟.

ثم قذف التمرات من يده، واندفع يقاتل بسيفه حتى قتل، وانتصر المسلمون ــ بفضل الله وتأييده ــ انتصارًا باهرًا على الكفار والمشركين، وقتلوا سبعين من خيرة رجال قريش، منهم أبو جهل الذى أجهز عليه عبد الله بن مسعود، وأمية بن خلف الذى خر صريعًا بسيف بلال بن رباح، الذى نال على يده كثيرًا من الإيذاء والتعذيب قبل الهجرة.

وأسر المسلمون أربعة وسبعين كافرًا من قريش فدوا أنفسهم بالمال صاغرين، وكانوا على وشك أن تضرب رقابهم لولا سماحة الرسول الكريم ﷺ وشفاعة أبى بكر.

ولم يقتل من الأسرى إلا اثنان فقط هما: النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، كانا شديدى السخرية والإيذاء للرسول الكريم ﷺ وللمسلمين فى مكة، أما المسلمون فسقط منهم أربعة عشر شهيدًا!.

وبعد فرار المشركين، أمر الرسول ﷺ بإلقاء قتلاهم فى القليب (البئر) والسبب فى إلقائهم فيه كثرتهم، فكان جرهم وإلقاؤهم فى البئر أسرع وأيسر من دفنهم.

ثم وقف الرسول ﷺ على رأس القليب وقال:... يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم، كذبتمونى وصدقنى الناس... ونادى عليهم بأسمائهم: يا أبا جهل... يا عتبة... يا شيبة... هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟!... فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا.

فقال عمر ﷺ للرسول ﷺ: يا رسول الله هل يسمعونك؟... إنهم موتى، فقال الرسول ﷺ: نعم ولكنهم لا يستطيعون الإجابة.

كان من بين أسرى قريش: العباس عم الرسول ﷺ، وعقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن أبى سفيان، وأبو العاص بن الربيع (زوج زينب بنت رسول الله ﷺ) وسمع الرسول ﷺ أنين عمن، فقام بعض الصحابة فأرخى وثاقه.

واتجه الرسول ﷺ إلى عمه وقال له:... افد نفسك وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث أو حليفك عتبة، بأربعين أوقية (يقصد ذهب) فقال العباس:... إذا فعلت ذلك فلن يبقى لى شىء وسأصبح فقيرًا طيلة حياتى.

فقال رسول الله ﷺ: فأين المال الذى تركته لزوجتك أم الفضل، وقلت لها: هذا للفضل وعبد الله وقثم.

فقال العباس: أشهد أنك صادق والله... فما قلتها لى الآن لم أخبر به أحدًا إلا أم الفضل، وقد أخبرك الله به... أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وكفرت بما سواه.

ثم أمر أخويه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، فأسلما، وحكم رسول الله ﷺ بأن من لا يملك مالاً من الأسرى، يفتدى به نفسه، ويجيد القراءة والكتابة، أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين، بعدها يكون حرًا طليقًا.

... بعد انتهاء القتال وانتصار المسلمين، أمر الرسول ﷺ بجمع الغنائم، فجمعت... واختلف المجاهدون (رضوان الله عليهم) فيمن هو أحق بها.

فقال الجامعون لها: هى لنا، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين ومطاردتهم: والله لولا قتالنا ما أصبتموها، وقال الذين كانوا يحرسون الرسول ويدافعون عنه والله ها أنتم أحق بها منا.

فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسمًا للخــلاف، ثم أنــزل بيان قسمتها فى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقد كان لغزوة بدر شأن عظيم فى كسر شوكة المشركين والحد من صلف قريش وكبريائها، ورغم أن المسلمين كان عددهم أقل بكثير من عدد المشركين وعتادهم (أسلحتهم) كانت قليلة، إلا أنهم انتصروا.

وكان ذلك النصر إعجازًا عظيمًا، لأن الملائكة نزلت وقاتلت مع المسلمين فى سبيل إعلاء كلمة الحق، وإعلاء الدين الحق، وتثبيت المؤمنين بالإيمان واليقين بأن الله معهم، ولقد حقق الله وعده لرسوله ﷺ وللمؤمنين، حينما آتاه نصرًا مؤزرًا كان فاتحة لانتصارات أخرى، وفر المشركون من بدر مرعوبين أذلة، ودخلوا مكة وهم خجلون من أنفسهم بسبب هزيمتهم وقتل رؤسائهم، وتلقت قريش نبأ انتصار المسلمين بالحزن والأسى، ورفضت أن تبكى على قتلاها حتى تأخذ بثأرهم.

فى أعقاب الهزيمة التى أصابت الكفار والمشركين، اتفق اثنان من قريش هما: صفوان بن الحكم وعمير بن وهب، على قتل رسول الله ﷺ.

فخرج عمير يحمل سيفه وذهب إلى المدينة، ولما وصل سجد رسول الله ﷺ، رآه عمر بن الخطاب فأمسك به وبحمالة سيفه ــ بعد أن شك فى أمره ــ وطلب عمير من عمر بن الخطاب أن يأذن له فى الدخول على رسول الله ﷺ، فاستأذن له عمر، فأذن له الرسول ﷺ، وطلب من عمر أن يترك الرجل، فدخل على رسول الله ﷺ وحياه بتحية الجاهلية قائلاً: عمت صباحًا.

فقال له الرسول ﷺ: إن الله أكرمنا بتحية خير من تحيتك...إنها يا عمير: السلام... تحية أهل الجنة، لماذا جئت يا عمير؟ فقال الرجل: جئت أفدى ابنى الأسير عندكم، فقال الرسول ﷺ: ولماذا تحمل سيفك إذن؟.

فقال عمير: فماذا فعلت سيوفنا وقد قتل من قتل وأسر من أسر منا؟ فقال الرسول ﷺ: لقد كنت قبل حضورك إلى المدينة تجلس مع صفوان بن الحكم فى الحجر واتفقتما على أن تقتل أنت محمدًا، وعلى أن يرعى صفوان عيالك، ولكن الله سيمنعك من ذلك يا عمير! فقال عمير: أشهد أنك لرسول الله حقًا وصدقًا... هذا ما حدث بينى وبين صفوان ولا يعلمه أحد سوانا... فالحمد لله الذى هدانى للإسلام.

فقال الرسول ﷺ: فقهوا أخاكم فى الدين، واقرءوا له القرآن، وأطلقوا سراح ابنه الأسير.

ومن أهم آثار غزوة بدر أن يهود المدينة أزعجهم بشدة انتصار المسلمين، فأخذوا يصغرون من شأن هذا الانتصار ويقللون من حجمه، حتى لا يغتر به المسلمون.

كما أدرك اليهود أن هزيمة قريش تحتم عليهم أن يدخلوا الميدان محاربين، بعد أن ضعف أملهم فى أن قريشاً وحدها قادرة على القضاء على محمد ﷺ وعلى دين الإسلام.

ولذلك كثرت مكائدهم من أجل قتل محمد ﷺ ــ كما سنرى ــ وكثرت دسائسهم ومؤامراتهم ضد المسلمين ــ سواء المهاجرين أو الأنصار.

غزوة بنى قينقاع (التفكير فى اغتيال النبى ﷺ):

كان لبدر أثر عميق فى قريش فقد حزنت لقتلاها وتحول هذا الحزن إلى حرص على الثأر من محمد والمسلمين حينما تتهيأ الفرصة للثأر هذا بالنسبة لقريش وقد فكرت فى إيذاء النبى ﷺ وجاء هذا التفكير فى الثأر من أفراد طحنتهم الهزيمة بقتل أقربائهم وآبائهم وفيما كانت مكة تغلى كالمرجل من الغضب تآمر بطلان من أبطالها على رسول الله ﷺ هذان الرجلان هما: عمير بن وهب الجمحى وصفوان بن أمية فقد جلسًا فى حجر إسماعيل بعد وقعة بدر بوقت قليل وكان عمير من شياطين قريش ممن كان

يؤذى النبى ﷺ وأصحابه وهم بمكة وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر، وتذكرا قتلاهم فى بدر، فقال عمير لصاحبه: والله لولا دين على ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ولى ابن أسير فى أيديهم، فاغتنم صفوان الفرصة وقال: علىَّ دينك أدفعه وأقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم — ما بقوا — أتكفل جميع أمرهم.

فقال له عمير هامسًا: إذن فاكتم عنى شأنى وشأنك واجعله سرًا فوافقه صفوان بن أمية.

ثم أمر عمير بسيفه فأعد له، وانطلق قاصدًا مدينة رسول الله فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب وهو يجلس مع أصحابه من المسلمين يتحدثون فى يوم بدر وما أكرمهم الله به فقال عمر: هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر ثم دخل على النبى ﷺ فقال: يا نبى الله هذا عدو الله قد جاء متوحشًا سيفه فقال ﷺ: فأدخله على فأقبل عمير وقال عمر لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ثم دخل به فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحمال سيفه فى عنقه قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا وقال: انعموا صباحًا، فقال النبى ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة ثم قال: ما جاء بك يا عمير؟.

فقال عمير: جئت لهذا الأسير الذى بين أيديكم فأحسنوا فيه، قال ﷺ: فما بال السيف فى عنقك.

قال عمير: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئًا؟.

قال: اصدقنى ما الذى جئت له؟.

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال ﷺ: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش (قتلى بدر) ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينك وبين ذلك!.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله إنى

لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره.

أما صاحبه صفوان بن أمية فكان ينتظر فى مكة ويقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر وكان يسأل الركبان على صاحبه عمير حتى أخبره أحد الركبان عن إسلام عمير فحلف صفوان أن لا يكلمه أبدًا ورجع عمير إلى مكة يدعو للإسلام فأسلم على يديه كثير من الناس(١).

ذكرنا أن اليهود كان لديهم ثلاث قبائل رئيسة هم: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة.

وكان اليهود فى المدينة يلعبون لعبة خطرة بين قبيلتى الأوس والخزرج أهل قبائل المدينة وجاء رسول الله ﷺ بدعوة مباركة أيدها الأنصار الذين بايعوه فى بيعتى العقبة الأولى والثانية، وذكرنا أن أول عمل قام به الرسول ﷺ بعد بناء المسجد هو المؤاخاة بين قبيلتى الأوس والخزرج ووضع حدًا للحروب والصراعات الطاحنة بينهم وعاشت المدينة فى أمان الإسلام وطمأنينة الروح الواحدة.

واليهود فى المدينة من حيث الثراء والثروة كانوا طوائف أغنى طائفة فيهم بنو قينقاع بل هم أغنى أهل المدينة جميعًا لأنهم كانوا يعملون فى صناعة الحلى والذهب والفضة ويعيشون فى مكان محصن بالمدينة وكانت اليهود بطبيعة الحال لا يحملون خيرًا فى نفوسهم للمسلمين بل يحقدون عليهم حتى إن الله سبحانه عز وجل وصفهم فى ذلك الموقف فى الآية الكريمة التى تقول: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

وقد اتضح ذلك جليًا بعد غزوة بدر.

وقد بدأت أحداث غزوة بنى قينقاع بامرأة من نساء المسلمين الأنصار الفاضلات والتى حضرت إلى سوق المدينة فباعت ما معها وما أحضرت من البادية وقصدت أحد الصاغة اليهود لشراء حلى وذهب لها وكانت اليهود تسيطر على تجارة الحلى وصياغة وصناعة الذهب والفضة فى المدينة.

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٦٦١: ٦٦٣.

وأثناء تواجدها فى محل الصائغ اليهودى حاول بعض المستهترين من شباب اليهود رفع حجابها والحديث إليها فتمنعت ونهرته فقام صاحب المحل التاجر اليهودى بربط طرف ثوبها وعقده إلى ظهرها فلما وقفت ارتفع ثوبها وانكشفت مؤخرتها فأخذ اليهود يضحكون منها ويتندرون عليها فصاحت تستنجد بمن يعينها عليهم ورأى ما حدث رجل مسلم غيور على نساء المسلمين وحريص على شرفهم ومكانتهم الطاهرة فتدخل من أجلها وهجم على اليهودى فقتله ولما حاول منعهم عنها وإخراجها من بينهم تكاثر عليه اليهود وقتلوه وثار المسلمون لمقتل صاحبهم ونقض اليهود حلفهم مع رسول الله ﷺ وتظاهروا لقتال المسلمين وكانوا أول يهود ينقضون عهدهم مع رسول الله ﷺ، لقد حاولوا هتك عرض امرأة مسلمة شريفة وقتلوا مسلمًا ثار لشرف المسلمين وها هم يستعدون لقتال المسلمين وهذا شأنهم فى كل العصور الاعتداء على أعراض الناس وممتلكاتهم ونهب أموالهم ولما تنافر الفريقان واستنفر كل منهم أصحابه وأعوانهم وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فغضب ﷺ أشد الغضب.

وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق على حسن الجوار والأمان ومحافظة كل منهم على عرض ومال الآخرة.

قال ﷺ حينما بلغه أمر المرأة المسلمة وقتل المسلم الذى دافع عن شرف المسلمين وعرضهم حينما استنصرت به قال ﷺ: «ما على هذا أقررناهم» لقد أقرهم ﷺ على الأمان وحقوق الجار فى الإسلام ولما أعلنوا الحرب على المسلمين وعلم بذلك الرسول ﷺ دعا أصحابه للخروج إليهم واستخلف أبا لبانة بن عبد المنذر على المدينة وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع ولما رأوه تحصنوا فى حصونهم فحاصرهم المسلمون أشد الحصار وكان ذلك فى النصف من شوال سنة ٢ هجرية ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة وقذف الله فى قلوبهم الرعب وأرسل إليهم الرسول ﷺ إنذارًا بالخروج من حصونهم ومن المدينة وإلا قضى عليهم فجاء ردهم عليه فيه من الكفر والفجور أكثر مما فيه من التبصر والحكمة لما سيحدث لهم من جراء ذلك.. وأصابهم الغرور والعنجهية فقالوا لرسول الله ﷺ «إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» واستطردوا فى ردهم يقولون إنهم قوم لهم تجربة فى القتال لا يعرفها الرسول ولا المسلمون.. وإن قريشًا التى انتصر عليها

المسلمون لها دراية بذلك وإنا لو التقينا بك يا محمد فى ميدان القتال لتعلمن من نكون نحن فى شدة بأسنا ومناعة رجالنا وعتادنا عند ذلك استعد رسول الله ﷺ وأعد جنوده للقتال وخرج إلى حصن بنى قينقاع وحمل لواء المسلمين حمزة عم النبى ﷺ حاصر المسلمون الحصون وكرروا الإنذار مرة أخرى فجعلوا يساومون الرسول ﷺ ويراوغون علهم يجدون فرصة للانقضاض على المسلمين لكنهم فى آخر الأمر اضطروا للاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ وهو الخروج من حصونهم ومن المدينة فجاء عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق، الذى يميل إليهم ويعتبرهم قومه وخاصته جاء إلى الرسول ﷺ قائلاً له: يا محمد أحسن فى موالى (يقصد أصحابه) ولما أبطأ عليه الرسول بالجواب أدخل يده فى جيب درع الرسول وتمادى فى طلبه وأثقل على الرسول حتى أغضبه وقال له: اتركنى، ولكن عدو الله قال له: أتقتل أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع (يلبس الدرع) قد منعونى وحمونى من الأحمر والأسود أى العرب والعجم وتحصدهم فى يوم واحد، فلما ضاق به الرسول ﷺ نهره قائلاً: هم لك.. خذهم لا بارك الله فيهم وتبرأ عبادة بن الصامت من عبد الله بن أبى وكان حليفهم فنزلت الآية الكريمة ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

(المائدة: ٥١)

وخرج بنو قينقاع من المدينة أذلاء دون سلاح وعتاد لأنهم نقضوا العهود والمواثيق وقسم الرسول ﷺ أموالهم بين المسلمين أخماسًا وأخذ له الخمس لينفقه على الفقراء والمحتاجين من أهل المدينة.

وخرجوا إلى بلاد الشام تاركين الأرض الطيبة بعد أن نقضوا العهد والميثاق.

مقتل عدو الله (كعب بن الأشرف):

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ

ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥١ - ٥٤).

تختلف الأحداث من سرية إلى أخرى ففى هذه السرية نتحدث عن رجل طغى وتكبر وناشد الإسلام العداء فقد أصاب الأشرف الأوسى قومًا وأهدر دمهم فى الجاهلية فجاء إلى المدينة هاربًا من تبعات هذا الدم وحالف بنى النضير فأصبح منهم وخاصة عندما تزوج إحدى بناتهم وهى عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت عقيلة للأشرف الأوسى ولدًا طويلاً، امتد عوده وينع فأصبح جسيمًا ذا بطن وهامة ولما كبر أصبح شاعرًا يجيد الشعر وأصبح سيد اليهود فى جزيرة العرب عندما أصبح أغنى أغنيائهم ومن كثرة ماله أصبح يغدق على أحبار اليهود فى الجزيرة ويعطيهم من ماله ويصلحهم دائمًا وجاءته أخبار رسول الله ﷺ وأخبار دعوته المباركة وظل يسمع من الناس ميلاد هذا النور المبارك حتى جاء الرسول ﷺ إلى المدينة عند ذلك جاءه أحبار الهيود من بنى قينقاع وبنى قريظة لأخذ عطاياه التى يمن بها عليهم والتى اشترى بها رأيهم وضمائرهم فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل؟ يعنى النبى ﷺ.

قالوا: أتدرى أنه هو الذى كنا ننتظر مجيئه ما أنكرنا من صفاته شيئًا فقد جاءنا بأشياء وعلامات كثيرة نعرفها!!.

عند ذلك غضب كعب بن الأشرف الأوسى على أحبار اليهود من بنى قينقاع وبنى قريظة وقال لهم: لقد حرمت عليكم مالى فلن تنالوا منه كثيرًا ارجعوا إلى أهليكم فإن لدى الكثير من مالى انصرفوا، خرج الأحبار من دار كعب بن الأشرف وقد خلت جعبتهم من مال تعودوا أن يقدم لهم كلما كانوا فى زيارة لكعب بن الأشرف ولم تمض أيام قليلة حتى عاد الأحبار إلى كعب بن الأشرف بفكر جديد ورأى جديد لقد قالوا: لقد تعجلنا معك الحديث عن محمد ﷺ «إنا أعجلناك فما أخبرناك به»[1] ولما تأكدنا من علمنا جيدًا عرفنا أن محمدًا ليس هو المقصود أو المنتظر كما ذكرنا لك وقد كان خطؤنا فى عجالة الحديث دون التروى ولذلك رحنا نمدح دين محمد أمامك وما كنا نعلم جيدًا ودعوته لقد أشكل علينا أمر هذا الرجل وظننا أن فى دينه ودعوته وشخصه شيئًا مما جاء فى التوراة وقد أخطأنا الظن فلا هو بذلك ابدًا مما ذكرنا لك آنفًا.

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج٣ ص١٤٧ ط دار المعرفة بيروت ١٩٨٠.

عند ذلك رضى كعب بن الأشرف الأوسى عن الأحبار وامتدت يداه إلى أمواله الكثيرة وراح يعطيهم ويغدق عليهم فرضى عنهم ووصلهم وجعل لكل من تابعهم ومشى على نهجهم من الأحبار شيئًا من ماله كى تتسع دائرتهم ويتكاثر عدد الموالين له ولقريش وبذلك يضيق الخناق على محمد ﷺ وأصحابه الكرام.

عند ذلك نزل قول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ (آل عمران: ٧٥).

وامتلأ قلب هذا الرجل حقدًا على الإسلام ومحمد وأصحابه الكرام وكان أن من الله على رسوله بأول نصر مظفر قصم ظهر الأشراف من قريش، إنه يوم بدر العظيم ولما انتصر فيه الرسول ﷺ قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهما قدما مبشرين أهل مدينة رسول الله ﷺ بذلك النصر العظيم الذى من الله به على عباده المستضعفين فى الأرض وصارا يقولان لأهل المدينة: قتل فلان فلانًا قتل أمية بن خلف وأسر فلان وفلان من أشراف قريش: عندما سمع كعب بن الأشرف الأوسى هذه الأخبار صار يكذب فى صحتها ويقول: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله إن كان قتل محمد هؤلاء القوم وأشرافهم فبطن الأرض خير من ظهرها والموت أهون من الحياة عليها ولم تمض أيام طويلة حتى تيقن عدو الله من صحة الأخبار وتأكد منها فازداد همًا وحزن أشد الحزن بسبب ذلك.

خرج كعب بن الأشرف الأوسى يرتحل ناقته متوجهًا إلى مكة حتى وصل إلى هناك وكان شاعرًا فأنشد يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ويمدح أعداء المسلمين من قريش ويحرضهم عليه ﷺ وظل ابن الأشراف ينشد الأشعار ويبكى من قتل ببدر من أشراف قريش ولما وصلت أخبار أشعار ابن الأشراف إلى مسامع رسول الله دعا ربه قائلاً «اللهم اكفنى شر ابن الأشرف بما شئت»[1].

وقد صاحب ابن الأشرف فى هذه الرحلة العدائية للإسلام والمسلمين سبعون رجلاً من اليهود ليحالفوا قريشًا على رسول الله ﷺ وعندما نزل على أبى سفيان قال لهم أبو سفيان: إنكم اهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا تأمن أن يكون هذا مكر منكم.

فأجابه ابن الأشرف مطمئنًا وموضحًا أنه حليف لقريش ثم أضاف قائلاً:

(١) انظر السيرة الحلبية ج٣ ص ١٤٧ ط دار المعرفة بيروت ١٩٨٠.

اعرضوا عليَّ دينكم يا أبا سفيان، فقال أبو سفيان: إنك تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقًا وأقرب إلى الحق أنحن أم محمد؟.

فقال كعب: اعرضوا على دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقرى الضيف ونفك العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه!! وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا قديم ودين محمد الحديث.

فقال كعب بن الأشرف: أنتم والله أهدى سبلاً مما هو عليه «يقصد الرسول ﷺ.

وراح كعب يهجو رسول الله والمسلمين والإسلام فى كل مكان فى مكة فقد حط الرحال فى مكة عند رجل يسمى المطلب بن وداعة وأكرمته زوجة المطلب وهى عاتكة بنت أسيد عند ذلك دعا ثابت وأسمعه هجاء عدو الله كعب بن الأشرف فهجا حسان المطلب وزوجته لأنهما استضافا كعبًا فى دارهما فلما بلغهما هجاء حسان لهما ألقوا لكعب حاجياته وقالت عاتكة: ما لنا ولهذا اليهودى! وانتهى به المطاف مرة أخرى إلى أبى سفيان فقال له أبو سفيان مرة أخرى عندما طلب كعب من قريش الخروج لقتال محمد ومعاونته فى ذلك: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكر منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، فوافقوا أبا سفيان على طلبه وسجدوا للأصنام فنزلت الآيات على رسول الله فى المدينة تبلغه بما حدث فى مكة قال تعالى عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٥١).

وحالف عدو الله قريشًا عند أستار الكعبة ضد رسول الله ﷺ وكان حلفه معهم على قتال المسلمين.

ولما وصل إلى المدينة عائدًا من مكة صار يؤذى نساء المسلمين ويتغزل فيهن ويذكرهن بالسوء حتى أذاهن، ولم يكتف بهذا الأمر بل تآمر على رسول الله ﷺ فقد اتفق مع جماعة من اليهود على إيذاء النبى والفتك به فقد كلفهم بدعوة الرسول ﷺ على طعام فإذا حضر وليمتهم فتكوا به وقتلوه ودبر هذه المؤامرة وابتعد هو عن التواجد فيها.

استجاب النبى ﷺ لدعوتهم وحضر هو وأصحابه فأعلمه جبريل عليه السلام بما أضمروه له بعد أن جلس بينهم فقام ﷺ وجبريل عليه السلام يستره بجناحه حتى خرج سليمًا فلما انصراف ﷺ تفرق اليهود إلى بيوتهم.

عند ذلك قال ﷺ: من لى بابن الأشرف فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا إنه يؤذى الله ورسوله فقد آذانا بشعره وقوى المشركين علينا من لى بقتل ابن الأشرف فقال محمد بن مسلمة وهو ابن أخت كعب بن الأشرف: أنا أقتله يا رسول الله أنا لك يا رسول الله فهو خالى[1]، وعزم على ذلك محمد بن مسلمة وأخذ معه أربعة من الأوس: عباد بن بشر وأبو نائلة وكان أخًا لكعب بن الأشرف من الرضاع والحارث بن عيسى والحارث بن أوس وجميعهم من الأنصار وظل محمد بن مسلمة رضي الله عنه بعد وعده لرسول الله ﷺ هذا لا يأكل ولا يشرب إلا ما تصلب به نفسه[2] وكى يوفى بوعده مع النبى ﷺ وقبل أن يخرج القائد محمد بن مسلمة إلى مهمته الجليلة ومعه صحبه الأبطال المجاهدون قال للرسول ﷺ: يا رسول الله لا بد لنا أن نقول ونذكر لعدو الله ما نتوصل به إليه من الحيلة والدهاء كى نحقق هدفنا.

فقال ﷺ: قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك.

إن هذه الإباحة من الرسول تقتضى ظروف الموقف أن يوافق عليها فهذه المهمة مهمة محمد بن مسلمة وأصحابه تعد مهمة جليلة يتم من خلالها القضاء على رجل أراد بالإسلام وأهله سوءًا بل وأذى المسلمين بالقول والفعل بماله ويده ولسانه وألب عليهم أعداءهم ونصرهم هل يكون فى المهام أشرف ولا أنبل من هذه المهمة.

وخرج ﷺ فى وداع الأبطال ودعا لهم بالتوفيق قائلاً: انطلقوا باسم الله اللهم أعنهم وانصرف الرجال لأداء مهمتهم وعاد ﷺ إلى المسجد يؤدى صلاته، تقدم أبو نائلة إلى عدو الله كعب بن الأشرف الأوسى وكان شاعرًا مثله فتحدث معه وتناشد شعرًا ثم تذكر أبو نائلة أنه قد استسمح رسول الله فى أن يتقول بما يشاء كى يظفر بهذا الكافر الفاجر فبادره أبو نائلة قائلاً: ويحك يا بن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى، فقال ابن الأشرف: لك ما شئت.

(١ – ٢) السيرة الحلبية ج٢ ص١٤٨.

فقال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء[1]، يقصد الرسول ﷺ ثم أكمل حديثه وحيلته قائلاً.

يا بن الأشرف: «عادتنا العرب ورمتنا عن قوس وحدة فقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس وسألنا الصدقة ونحن لا نجد ما نأكل وسائر ما عندنا أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه.

فقال كعب بعد أن اطمأن لحديثه: لقد كنت أخبرتك يا بن مسلمة أن الأمر سيصير إلى ما تقول، اصدقنى ما الذى تريدون فى أمره؟.

قال أبو نائلة: نريد خذلانه والتنحى عنه.

قال كعب: لقد تبين لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل، تماسك الرجال ونظروا إلى السماء المقمرة ودعوا الله فى صدورهم ونفوسهم أن يلهمهم الصبر على هذا التقول الباطل من أساسه ولكن تلك حيلة الحرب والسياسة، ثم واصل أبو نائلة الحديث معه وأصحابه يمشون إلى جواره فمد يده ووضعها على رأس عدو الله كعب بن الأشرف ثم شم يده وقال: ما رأيت طيبًا أعطر من هذا الطيب، فقال كعب: وكيف وعندى أعطر نساء العرب وأجمل العرب؟.

فقال أبو نائلة: يا أبا سعيد أدن منى رأسك أشمه وأمسح يدى ووجهى — ثم مشوا وقتًا قصيرًا — ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأسه وأمسك به وقال لإخوانه: اضربوا عدو الله[2].

فانقض الرجال عليه فصاح عدو الله صيحة سمعها كل حصون بنى قريظة والنضير وانقض عليه محمد بن مسلمة وكبر ووضع سيفه فوق رقبته وكانت نهاية عدو الله على يد أحباب الله ورجاله الذين عاهدوا رسوله فصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وقد أصيب رجل من هؤلاء الأبطال هو الحارث بن أوس من بعض أسياف أصحابه فى رجله وذلك من شدة ضرباتهم لعدو الله، ولما خرج اليهود لمطاردة الأبطال تخلف الحارث بن أوس نظرًا لإصابته فقال لأصحابه وناداهم قائلاً: أقرئوا رسول الله ﷺ منى السلام، فعادوا إليه واحتملوه بينهم وأخذوه معهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر تاريخ الطبرى ج٢ ص٥٩٨.

واقترب الأبطال من مدينة رسول الله بينما كان الليل قد انصرف منه وقت طويل وهناك عند البقيع كبر الأبطال ليسمعهم رسول الله ﷺ وهو يصلى فى مسجده بالمدينة فلما سمع تكبيرهم وعرف أنهم قتلوا عدو الله خرج إلى باب المسجد ووقف ينتظرهم فجاءوا فقال لهم ﷺ: أفلحت الوجوه.

فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله.

فحمد الرسول ﷺ على قتل عدو الله وذعر اليهود فى المدينة وقالوا: قتل سيدنا، فذكر لهم النبي ﷺ صنيعه من التحريض عليه وعلى المسلمين وإيذاءهم، فزاد خوفهم وأنزل الله فى قلوبهم الرعب ونصر عباده الصالحين.

سرية زيد بن حارثة للعيص:

ورد أن النبى ﷺ قال: «حدثنى فصدقنى ووعدنى فأوفى والله ما زممناه صهرًا» عن أبى العاص بن الربيع.

قالت عائشة رضى الله عنها: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ولو بقى لاستخلفه»[١].

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أخرج الكفار من أهل مكة بقية المسلمين بعد أن أذاقوهم العذاب واستولوا على أموالهم عزم المسلمون أن يردوا الصاع صاعين وأن يردوا بغى البغاة وظلم الظالمين وبحكم موقع المدينة المنورة فى شمال مكة وهى على طريق قوافل التجارة بين بلاد الشام ومكة فى أرض الحجاز فقد استطاع المسلمون رصد أى تحركات لأى قافلة قادمة من الشام إلى الحجاز وبالعكس وبلغ إلى علم الرسول ﷺ أن قافلة لقريش محملة بأطايب الطعام وأفخر الثياب والبضائع المحملة فى بلاد الشام ليسعد بها أهل مكة من الكفار والمشركين فما كان من الرسول ﷺ إلا أن يقرر اعتراضها وقد اختار بطلاً من أبطال الإسلام ليقوم بهذه المهمة الجليلة هذا الرجل هو زيد بن حارثة ولطالما اختير زيد لمهام عظام مثل هذه، ذلك ما أكده صحابى جليل هو سلمة بن الأكوع عندما قال: غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة ﷺ سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله[٢] ﷺ، وقد كانت هذه السرية سرية زيد بن

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة.

(٢) سيرة دخلان على هامش السيرة الحلبية ج٢ ص١٤٦.

حارثة فى جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة سمع زيد فى هذا اليوم أمر رسول الله ﷺ له بالخروج فخرج على رأس سبعين رجلاً من أشداء المسلمين فقد عاهد هذا الجمع المبارك الله ورسوله على السمع والطاعة فى المنشط والمكره فى الحرب والسلم فى الشدة والفرج يدافعون عن لواء الإسلام مهما كلفهم ذلك من أموال وأنفس ومشقة سفر.

خرج الرجال من المدينة يتقدمهم قائدهم زيد بن حارثة وقد علموا أن بينهم وبين القافلة القادمة مسافات بعيدة تقتضى المسير عدة ليال وهم يرتحلون إبلهم ويترجلون فرسانهم طال المسير أربع ليال بأكملها كل يسبح وهو فى طريقه وكل يؤدى صلاته مهما طال السفر فسفرهم هذا جهاد فى سبيل الله وفى سبيل ضرب الباطل ونصرة الحق.

بعد أربع ليال من المسير شمال المدينة وصلت سرية زيد بن حارثة إلى مكان يسمى العيص يقع شمال المدينة بمقدار أربع ليال سيرًا على الأقدام أو مرتحلاً راحلة من الإبل وهناك أدرك زيد بن حارثة ورجاله قافلة قريش وفى لحظات قياسية استطاع محاصرتها والاستيلاء عليها وعلى ما تحمل من أموال وبضائع إلى قريش وكان من بين هذه الأموال فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف أحد زعماء الكفار فى مكة.

وتم أسر بقية رجال القافلة ويفاجأ المسلمون أن من بين الأسرى صهر رسول الله ﷺ أبا العاص بن الربيع زوج ابنته الكبرى زينب، وأبو العاص بن الربيع هو ابن شقيقة السيدة خديجة زوج رسول الله ﷺ فأمه هالة بنت خويلد شقيقة خديجة رضى الله عنها.

كان أبو العاص على دين الكفر إلى هذه اللحظة ولم يدخل الإسلام بعدُ، انطلق الموكب المهيب إلى المدينة فيه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأطاعوه وأطاعوا رسوله ﷺ الأسرى خافض رءوسهم والقائد وجنوده يصلون وهم فى الطريق صلاة بعد صلاة فيسجدون ويركعون فى خشوع جم والأسرى ينظرون إليهم وقد أدهشم هذا الخشوع وكأن شيئًا لم يكن، لم يشعر أسير منهم بفرحة النصر وغروره على وجوه هؤلاء الجند جند محمد ﷺ ما أكثر ما غنموا من غنائم وأموال ألا يفرح هؤلاء بما غنموا من أموال وبضائع شامية وحرائر حملتها إبلهم بينما الناس فى مكة ينتظرون مجىء قافلتهم على أحر من الجمر وفى تعطش كامل وظمأ لا يرويه إلا مثول هذه الأموال والبضائع بين أيديهم مع هذا المشهد الذى لاحظنا صورته مضى أبو العاص فى خطى هادئة وقد ملأ الحزن قلبه وراح فى هَواجس وأفكار لم يجد لها حلاً فالتزم الصمت وراح يفكر فى هذا الأمر فقد تذكر ما مر به منذ زمن قريب وعلى هذا

الطريق نفسه الذى أسر فيه وفى قافلة قادمة من الشام أسره المسلمون أيضًا وأرسلت زوجته زينب قلادة أمها خديجة التى ما إن رآها رسول الله ﷺ حتى تذكر صاحبة هذه القلادة ففرض الأمر على المسلمين فى ذلك الوقت فأجمعوا الرأى على إطلاق سراحه وردوا عليه ماله وتقدم منه الرسول ﷺ وطلب منه أن يرسل إليه زينب التى كانت لا تزال فى مكة عند أبى العاص بن الربيع فعاهد الرسول على إرسالها المدينة معززة مكرمة لأنها لا تحل له وهو على دين غير الإسلام فأوفى بعهده وعاد إلى مكة وأرسل زينب فى حراسة أخيه وقد ترحلت ناقته وواجهت زينب متاعب فى الطريق عندما حاول الكفار منعها من العودة إلى المدينة وقد أسقطت حملها عندما سقطت من على الراحلة والكفار يطاردونها وقد اعترضهم شقيق أبى العاص الذى شهر سيفه وقرر القتال دونها فتركه الكفار وشأنه ووصلت زينب إلى المدينة وقد حزن الرسول ﷺ لإيذاء الكفار لابنته وفى الوقت نفسه قد صدق صهره أبو العاص ووفى بعهده له فى المدينة.

تذكر أبو العاص كل هذه الأمور وحسب فى نفسه أن هذه فى المرة الثانية التى يقع فيها أسيرًا بين يدى المسلمين ما العمل إذن؟ وزينب زوجته هنا فى المدينة من يرسل إليه فديته من مكة وقد خالف أهلها عندما أصر على إرسال ابنة محمد ﷺ إلى المدينة ــ رغم اعتراضهم ــ ماذا يفعل وقد خالفهم عندما عرضوا عليه أكثر فتيان مكة جمالاً ومالاً وشرفًا ليستبدل بها ابنة محمد ﷺ فرفض وفضل الإبقاء على زينب ابنة خالته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها لقد عرضوا عليه ابنة سعيد بن العاص من أشراف مكة وقريش فرفض وخالف نصحهم ماذا يفعل بعد هذا كله؟ لقد أصبح الأمر صعبًا هذه المرة ولا يدرى أبو العاص ما ستكون عليه عاقبة أسره هذه المرة.

فكر أبو العاص وقد تاقت نفسه لرؤية زوجته زينب فلقد طال فراقهما وها هو ذاهب إلى المدينة وقد أتيحت له فرصة رؤيتها ولكن كيف يحقق أمنيته هذه وهو أسير مقيد فلم يعد يملك زمام أمره ترى ماذا يفعل؟.

افاق أبو العاص من كل هذه الأفكار والهواجس والخواطر على صوت رجل من المسلمين يقول: حان وقت الصلاة يا إخوة الإسلام.

وبعدها توقف الركب وشرع بعض الرجال لأداء الصلاة بينما البـ
لحراسة الأموال التى غنمها المسلمون ووقف قائد السرية زيد بن حا
إمامًا لهؤلاء الرجال.

بعد أن قضيت الصلاة انصرف المركب ليكمل المسير للمدينة يتقدمهم زيد بن حارثة وكان أبو العاص بن الربيع قد رتب فى نفسه أمرًا وسولت له نفسه أن يستجير بزوجته زينب وكانت خيوط الظلام قد زحفت على الأفق وأقبل الليل عند دخول القافلة المدينة وشاع فى المدينة أن زيد بن حارثة قد وصل المدينة بعد أن اعترض قافلة قريش فى منطقة العيص وفجأة تخلف أبو العاص عند الركب وتسلل فى جنح الظلام إلى بيت رسول الله ﷺ حيث تسكن زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ ودخل أبو العاص على زينب وقال: أجيرينى يا ابنة العم.

رحبت زينب بالزوج العزيز وابن الخالة وابن العم أيضًا فأبو العاص بن الربيع من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة.

مر الوقت سريعًا والرسول فى المسجد وقد حان وقت صلاة الفجر والرسول فى مسجده ومعه الصحابة الأجلاء كل يسبح ويرتل قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا أقيمت الصلاة فى المسجد وارتفع صوت بلال مؤذن الرسول ﷺ بإقامة الصلاة وكبر رسول الله وشرع فى قراءة الفاتحة وانتظم جمع المسجد فى صلاة خاشعة هى صلاة الفجر، وفى أثناء الصلاة نادت زينب بنت رسول الله من بيته بصوت يسمعه الجميع وكل من فى المسجد قالت زينب: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ وانتهت الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟.

قالوا: نعم.

قال ﷺ: «والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من هذا حتى سمعت ما سمعتم المؤمنون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت» بعد ذلك خرج ﷺ من المسجد ودخل على ابنته زينب وعلم أن أبا العاص قد دخل بيته واستجار بزوجته زينب وقالت زينب لرسول الله ﷺ:

يا أبى رد عليه مائة الذى أخذه منه.

فقال ﷺ: أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له.

فقالت زينب: يا أبى إن أبا العاص إن قرب فابن عم وإن بعد فأبو ولد وإنى قد أجرته.

الآخر توقف يؤدى الصلاة

فخرج الرسول ﷺ إلى أصحابه وقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به»[1].

فقالوا جميعًا وفى صوت واحد: يا رسول الله بل نرده عليه وبدأ الناس فى رد أموال أبى العاص إليه حتى إن الرجل منهم ليأتى بالدلو فيرده لأبى العاص حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئًا، أخذ أبو العاص بن الربيع ماله وانطلق عائدًا إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله ورد الأمانات إلى أهلها.

ثم قال: هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه، قال: لا.

قال هو: أوفيت ذمتى؟

قالوا: اللهم نعم فجزاك الله عنا خيرًا فقد وجدناك وفيًا كريمًا.

قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوفًا أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم فلما ردها الله عليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج من مكة، قصد أبو العاص بعد ذلك إلى المدينة حيث تسكن زوجته وها هو قد من الله عليه بالإسلام بعد أن رد أموال الناس وأماناتهم فى مكة.

وانضم أبو العاص بن الربيع إلى أسرة الرسول فى المدينة وسعد ﷺ بقدوم صهره مسلمًا فرد عليه زوجته زينب وعقد لهما زواجًا جديدًا زواجًا إسلاميًا مباركًا.

وأنجب أبو العاص من زينب بنتًا سماها «أمامة» وابنًا سماه «على» وأحبهما جدهما رسول الله ﷺ.

وقال عنه رسول الله ﷺ: «حدثنى فصدقنى ووعدنى فأوفى والله ما زممناه صهرًا».

نعم كان أبو العاص صادق الحديث وفيًا لوعده حبيبًا لصهره الرسول ﷺ فأكرم مثواه وتشرف بمصاهرة الرسول ﷺ.

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ سيرة زيد بن حارثة للعيص.

هذه القصة هى نتاج سرية زيد بن حارثة «للعيص» فى السنة السادسة من الهجرة لم تهدأ قريش ولم تستقر بعد هزيمتها فى بدر فقد كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من قتل أشرافها.

وعقدت قريش العزم على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدها، وكان عكرمة بن أبى جهل وقد قتل أبوه فى بدر وصفوان بن أمية بن خلف وقتل أبوه فى بدر أيضًا ومعهم: أبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبى ربيعة هؤلاء الأربعة هم الذين تزعموا عملية إعداد قريش للمعركة فصادروا أموال قافلة أبى سفيان التى كانت سببًا فى معركة بدر وخصصوا أموالها لتمويل حربهم ضد محمد ﷺ فالقافلة ألف بعير والمال خمسون ألف دينار، وتذكروا سرية زيد بن حارثة وما استولى عليه المسلمون من أموال فى الأمس القريب.

استدار العام وأعدت قريش عدتها، ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ورأى قادة قريش أن يصحبوا معهم النساء حتى يكون الرجال أكثر حماسة خوفًا على أعراضهم ونسائهم.

ومع قريش ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس(١) وسبعمائة درع وكان قائد الجيش هو أبو سفيان بن حرب وقائد الفرسان خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبى جهل.

وفى موكب ضخم ومخيف تحرك الجيش المكى جيش قريش فى اتجاه المدينة وكل رجاله يحملون الغيظ والثأر من المسلمين ومحمد ﷺ، ولما تهيأ القوم للمسير والعباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ واقف بينهم وعلى أمرهم وسرهم مطلع وكان العباس برغم حرصه على دين آبائه ودين قومه يحس لمحمد ﷺ شعور العصبية وشعور الإعجاب بابن أخيه ويذكر له حسن معاملته إياه يوم بدر وقد حضر بيعة العقبة الكبرى.

ولذلك قرر العباس أن يكتب كتابًا لابن أخيه يصف فيه صنيع قريش وجمعهم وعدد جيشهم وعدتهم فكتب الكتاب وسلمه لرجل من قبيلة غفار فسار به إلى النبى ﷺ حتى بلغ المدينة ووصلها فى ثلاثة أيام ثم سلمه للرسول ﷺ، أما قريش فقد سارت حتى بلغت الأبواء وهو المكان الذى ماتت فيه آمنة أم النبى ﷺ لو تذكرون ومرت قريش بقبر آمنة بنت وهب وتابعت قريش مسيرها ثم نزلت عند سفوح جبل أحد على بعد خمسة أميال من المدينة أما الغفارى حامل الرسالة والذى بعثه العباس بن عبد المطلب فقد وصل المدينة.

---

(١) انظر زاد المعاد ٢/ ٩٢.

بـــــدء القـتـــــال

كان الشوق للقتال على أشده والبحث عن الثأر يملأ نفوس قريش رجالاً ونساء فقد قامت نسوة قريش بدور كبير فى معركة أحد وكانت تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان فكن يتجولن فى الصفوف ويضربن بالدفوف يستنهضن الرجال ويحرضن على القتال ويحركن مشاعر المقاتلين رماة وفرسانًا فتارة يتوجهن بالحديث إلى أهل اللواء فينشدن:

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الإربا

ضربًا بكل بتار

ثم ينشدن الأهازيج تشجيعًا للرجال والمقاتلين فيقلن وينشدن:

إن تــقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وبدأت المعركة فتقارب الجيشان وبدأت معركة أحد فكان أول من طحنته السيوف والنبال حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى وكان من أشجع الفرسان حتى إن المسلمين كانوا يسمونه كبش الكتيبة فقد خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة فخافه الناس لشدته وشجاعته وأحجموا عنه ولكن الزبير بن العوام خرج إليه ولم يمهله فقد هجم عليه هجمة أسد جائع حتى أصبح معه على جمله فأوقعه على الأرض وذبحه بسيفه ولما رأى النبى ﷺ الزبير وقد طار إليه على جمله وأوقعه وذبحه فى لمح البصر كبر واستبشر وكبر المسلمون وأثنى على الزبير قائلاً: إن لكل نبى حواريًا وحوارى الزبير.

واشتد القتال واندفعت النفوس المؤمنة تدافع عن دينها وقد رخصت أرواحها وكل مسلم بطل يردد مع ضربات سيفه ونبله شعارًا يقول: أمت أمت.

وكان أشد القتال يدور حول لواء وعلم المشركين فكلما حمله رجل من المشركين قتله المسلمون فقتل طلحة بن أبى طلحة وأخوة أبو شيبة عثمان بن طلحة قتله حمزة بن عبد المطلب وجاء بعده أبو سعد بن أبى طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم فأصابه ومات فى الحال وظل رماة المسلمين على هذا حتى قتلوا ستة من حاملى اللواء حتى سقط اللواء على الأرض ولم يبق أحد يحمله فبقى ساقطًا ودار قتال مدير فى جميع

الاتجاهات فأقبل أبو دجانة الأنصارى بعصابته الحمراء كالأسد وقد حمل سيف رسول الله ﷺ فقاتل حتى أفنى الكثير فكان لا يقاتل مشركًا إلا قتله وأخذ يهد صفوف المشركين هدًا.

وقد تحدث عنه الزبير بن العوام فقال: وجدت وحزنت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة قلت فى نفسى: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته أن يعطينى السيف قبله فأعطاه إياه وتركنى والله لانظرن ما يصنع؟.

هذا ما فكر فيه الزبير حين أعطى رسول الله ﷺ السيف لأبى دجانة ولكن ما الذى رآه الزبير فى هذا اليوم العظيم من أبى دجانة قال الزبير: فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت فخرج وهو ينشد:

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أنا لا أقوم الدهر فى الكيول[1] أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله وكان فى المشركين رجل ل يترك للمسلمين جريحًا إلا قضى عليه.

فجعل كل واحد منهما يقترب من الآخر أبو دجانة وهذا الرجل.

يقول الزبير: فدعوت الله أن يلتقيا حتى يقتله أبو دجانة فالتقيا فضرب المشرك أبا دجانة ضربة تلقاها بدرعه فضربه أبو دجانة فقضى عليه وقتله.

ثم دخل أبو دجانة الصفوف حتى اقترب من قائدة نساء قريش وهو لا يدرى أنها امرأة فقال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا فاعترضه طريقه فلما رفعت سيفى ولول فعرفت أنها امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

مصرع حمزة بن عبد المطلب:

كان حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ فارسًا مغوارًا فى هذا اليوم كما كان يوم بدر فقاتل قتال الأسود واندفع فى قلب جيش المشركين يغامر ويقاتل فتهوى أمامه رءوس الأبطال فقد شارك فى القضاء على حاملى اللواء حتى قتله عبد من الخلف لا كما تقتل الأبطال من الأمام وجهًا لوجه كالفرسان الشرفاء ومن قاتله؟ إنه وحشى بن حرب الحبشى ولنترك وحشيًا يحدثنا عن مقتل حمزة.

---

(١) آخر الصفوف، يقصد أنه لا يقاتل فى آخر الصفوف بل يظل فى المقدمة.

قال وحشى: كنت غلامًا صغيرًا لمطعم بن جبير وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى ابن جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة فأنت عتيق.

قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة فنادرًا ما أخطئ بها شيئًا، فلما التقى الجيشان خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس هدًا فوالله إنى لأتهيأ له أريد قتله فأستتر منه بشجرة أو بحجر ليقترب منى ولما وجدته هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت فى أحشائه حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينظر نحوى فوقع وتركت الحربة حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة عتقت»[١] وقد أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف وقتل مسيلمة الكذاب بحربته التى قتل بها حمزة وشهد معركة اليرموك ضد الرومان، هذا هو حمزة بن عبد المطلب أسد الإسلام وشهيد أحد كان بطلاً مغوارًا مغامرًا وكان من المسلمين أبطال مغامرون يوم أحد ومنهم حنظلة بن عامر غسيل الملائكة كما أطلق عليه وكان حنظلة حديث الزواج فلما سمع أخبار الحرب وهو مع عروسه انخلع منها وخرج على الفور للجهاد فلما التقى بجيش المشركين قاتل قتالاً باسلاً حتى اقترب من قائد جيش المشركين أبى سفيان بن حرب وكاد يقتله لولا أن كتب الله له الشهادة فضربه أحد المشركين فقتله.

أما الرماة بقيادة عبد الله بن جبير الأنصارى فقد قاتلوا ببسالة فما أن هجم فرسان قريش بقيادة خالد بن الوليد ثلاث مرات ليضربوا الجناح الأيسر لجيش المسلمين لكى يدخلوا من خلف المسلمين فيحدثوا البلبلة والارتباك ولكن الرماة لم يمكنوهم ورشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث[٢].

ومضت أحداث المعركة فى صالح المسلمين وبدأ جيش المشركين فى التقهقر والاندحار والتراجع والانحسار فترى المسلمين فى هذه اللحظات وكأنهم آلاف مؤلفة والمشركين الذين كانوا ثلاثة آلاف لا وجود لهم، وأخذت قريش فى الانسحاب

---

(١) ابن هشام ج٢ ص٦٩: ٧٢.

(٢) فتح البارى ج٧ ص٣٤٦.

والتراجع بل لجأت إلى الفرار وأنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده وكانت الهزيمة لا شك فيها وتبعهم المسلمون يطاردونهم ويأخذون منهم الغنائم.

خطأ الرماة القاتل:

وبينما كان جيش الإسلام يطارد فلول المشركين ويسجل نصرًا عظيمًا ورأى الرماة إخوانهم وهم يغنمون الغنائم ويطاردون جيش الكفر فارتكبوا خطأ فادحًا أدى إلى قلب دفة المعركة لصالح المشركين بل كاد النبى ﷺ أن يقتل لولا حفظ الله له سبحانه عز وجل فبرغم الأوامر المشددة نسى الرماة فى لحظة هذه الأوامر فلما رأوا المسلمين يجمعون غنائم النصر على العدو غلبت عليهم رغبة جمع المال وحب الدنيا فقال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة انتصر أصحابكم وظهروا على أعدائهم فما تنتظرون ولكن قائدهم عبد الله ابن جبير ذكرهم بما قاله رسول الله ﷺ وقال لهم:

أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، لكنهم لم يستمعوا واندفع أغلبهم وقالوا: والله لنأتين الناس لنصيبن من الغنيمة .

ثم انطلق أربعون رجلاً منهم وتركوا مواقعهم فى الجبل والتحقوا بجيش المسلمين ليشاركوا فى جمع الغنائم وأصبح ظهر جيش المسلمين مكشوفًا للأعداء ولم يبق فى الجبل إلا ابن جبير قائدهم وتسعة من أصحابه التزموا بالأوامر وصمموا على البقاء حتى يؤذن لهم أو يقتلوا.

كانت هذه فرصة ذهبية لخالد بن الوليد قائد فرسان المشركين فاستدار بسرعة حتى وصل إلى مؤخرة جيش المسلمين فاستطاع أن يقضى على عبد الله بن جبير وأصحابه التسعة ثم انقض على المسلمين من خلفهم وصاح فرسانه صيحة أشارت للمشركين بإشارة تدل على تبدل دفة المعركة لصالحهم فانقلبوا على المسلمين وأسرعت امرأة مشركة اسمها «علقمة الحارثية» فرفعت لواء المشركين الملقى على التراب فالتف حوله المشركون ونادى بعضهم البعض حتى اجتمعوا على المسلمين وتكاثروا وثبتوا للقتال وأصبح المسلمون محاصرين من الأمام والخلف.

وكان رسول الله ﷺ فى صحبة تسعة من أصحابه فى مؤخرة المسلمين كان يلاحظ قتال المسلمين ومطاردتهم للمشركين ولكنه فوجئ بفرسان خالد بن الوليد ورأى أن

(١) انظر صحيح البخارى من حديث البراء بن عازب ١/ ٤٢٦.

الموقف أصبح خطيرًا فنادى أصحابه ودعاهم إلى العودة للقتال ولما سمع الكفار صوته عرفوا مكانه واتجهوا إليه ليؤذوه وارتبك المسلمون وفر منهم من فر إلى المدينة وبعضهم إلى أعلى الجبل ورجعت طائفة فاختلطت بالمشركين ووقع القتل فى المسلمين وتصادم بعضهم ببعض وبينما هم على حال الارتباك والتصادم سمعوا صوتًا يصيح قائلاً: إن محمدًا قد قتل، فطارت بقية صوابهم وانهارت روحهم المعنوية فتوقف من توقف منهم عن القتال فمر بهم أنس بن النضر وقد توقفوا عن القتال فقال لهم: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ.

قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

ثم قال لهم: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ــ يعنى المسلمين ــ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ــ يعنى المشركين ــ.

ثم تقدم أنس فلقيه سعد بن معاذ فقال سعد: أين يا أبا عمر؟.

قال أنس بن النضر: واها لريح الجنة يا سعد إنى أجدها دون أحد ثم مضى أنس فقاتل المشركين حتى قتل فما عرف حتى عرضته أخته بعد انتهاء المعركة وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم(١)، ونادى ثابت بن الدحداح الأنصارى قومه فقال: يا معشر الأنصار إن كان محمدًا قد قتل فإن الله حى لا يموت قاتلوا على دينكم فإن الله مظفركم وناصركم فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح وقتل أصحابه(٢).

تعرض رسول الله ﷺ للخطر فقد كان القتال شديدًا ومحتدمًا حوله وكان رسول الله ﷺ فى البداية لا يجد حوله سوى تسعة أنفار نادى المسلمين: هلم إلىَّ أنا رسول الله، سمع صوته المشركون فعرفوه فهجموا عليه وتكاثروا عليه قبل أن يأتيه أحد من المسلمين فجرى بين المشركين وهؤلاء الأبطال التسعة(٣) قتال عنيف ظهرت فيه محبتهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم من أجله فلما ضايقوا رسول الله ﷺ قال: من يردهم عنا وله الجنة، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ودار قتال شديد حول رسول الله قتل

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٣: ٩٦ وصحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.
(٢) انظر سيرة ابن هشام السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.
(٣) كانوا سبعة من الأنصار واثنين من المهاجرين.

على أثره سبعة من أصحابه وكلهم من الأنصار وبقى معه رجلان من المهاجرين فقال لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا[١].

وكان آخر هؤلاء السبعة الذين استشهدوا دفاعًا عن رسول الله هو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل حتى أسكتته الجراح فقتل.

ولم يبق مع رسول الله غير القرشيين وهما طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ فرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين وقد رمى عتبة بن العاص النبى ﷺ فأصيب ﷺ فى وجهه وشفته السفلى وتقدم إليه رجل آخر من المشركين فأصابه فى جبهته وجاء رجل مشرك آخر وضرب رسول الله على صدره بالسيف تصدت لها الدروع ولكنه ﷺ ظل يشكو منها أكثر من شهرين.

ثم ضرب رسول الله ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى وكان هذا الكافر اللعين هو عبد ابن قمئة، يقول حين ضرب الرسول ﷺ فى وجنته: خذها وأنا ابن قمئة.

فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله وقد سمع رب العزة دعاء رسوله الكريم ﷺ على هذا الكافر اللعين فحينما انصرف إلى أهله خرج إلى غنمه فوجدها على ذروة جبل فلما جاء عندها وجد تيسًا يدفع برأسه فنطحه نطحة جعلته يسقط من أعلى الجبل الشاهق فتحطم وتقطع إربًا إربًا[٢].

وكان سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله من أمهر رماة العرب فدافعا عن الرسول ﷺ دفاعًا مستميتًا حتى إن يد طلحه شلت وإنه جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين.

وشلت إصبعه أى السبابة والتى يليها ــ فقال رسول الله ﷺ يومها للمسلمين عن طلحة: «دونكم أخاكم فقد أوجب» فأقبل الصحابة على طلحة يعالجونه[٣].

وكانت النبل تأتى ناحية رسول الله ﷺ وكان أحد المشركين يقول: دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جواره منفردًا لا يوجد معه أحد فمر عليه وجاوزه فعاتبه فى ذلك صفوان بن أمية فقال الرجل لصفوان: والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك[٤].

---

(١) رواه مسلم باب غزوة أحد ٢/ ١٠٧.
(٢) فتح البارى ج٧/ ٣٦٦: ٣٧٣.
(٣) انظر زاد المعاد ٢/ ٩٥.
(٤) زاد المعاد ٢/ ٩٧.

وأبلى المسلمون فى هذا اليوم بلاء حسنًا فكان أبو طلحة الأنصارى يحمى رسول الله فيرفع صدره فى وجه السهام ليحميه منها وقد تحدث أنس بن مالك عن بطولة أبى طلحة الأنصارى فقال:

لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ وأبو طلحة بين يديه، وكان رجلاً راميًا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر معه بجعبته من النبل فيقول: «انثرها لأبى طلحة».

قال: ووقف النبى ﷺ لينظر إلى القوم فيشرف عليهم يقول طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف (لا تنظر أو لا تظهر) يصبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك[(١)].

أما أبو دجانة فإنه حجب الرسول ﷺ عن السهام بظهره والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب وكسرت أسنانه فهتم وجرح عشرين جراحًا أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج.

ومن النساء المسلمات من دافعن عن رسول الله ﷺ فقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قمئة فى أناس من المسلمين فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها لكن كانت عليه درعان فنجا من ضرباتها وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحًا.

وقاتل مصعب بن عمير بشجاعة عظيمة فكان يدافع عن النبى ﷺ ويصد هجوم ابن قمئة وأصحابه وكان اللواء فى يده فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت فأخذ اللواء بيده اليسرى وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل وكان الذى قتله هو ابن قمئة وهو يظنه رسول الله لشبهه به وعندما قتله صاح بأعلى صوته: إن محمدًا قد قتل[(٢)].

وعندما سمع المسلمون صياحه خارت قواهم وانهارت معنوياتهم لأنهم صدقوا كذبته ولما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء لعلى بن أبى طالب فقاتل

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨١.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص٨٠: ٨٣ زاد المعاد.

قتالاً ضاريًا عنيفًا وتبعه الصحابة حتى شقوا ومعهم الرسول طريقًا إلى إخوانهم المحاصرين فأقبل إليهم فلما رآه كعب بن مالك عرفه فنادى بأعلى صوته:

«يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ».

فتجمع حوله سريعًا كوكبة من المسلمين بلغ. عددهم الثلاثين رجلاً فأشار إليه النبى ﷺ أن اصمت حتى لا يعرف موضعه المشركون وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين وحاولوا عرقلة انسحابه ﷺ ففشلوا.

وصلت هذه المجموعة إلى شعب الجبل وفى أثناء انسحاب النبى ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل فحاول أن يعلوها فلم يستطع لأنه كان متعبًا وأصابه جرح شديد فجلس(١) تحته طلحة بن عبد الله فنهض به حتى استوى عليها فقال: أوجب طلحة أى الجنة ، وصعد خلف رسول الله مجموعة من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلوها فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

ورغم كل ذلك فقد كان المشركون متيقنون من أن رسول الله ﷺ قد قتل ورجعوا إلى مقرهم وأخذوا يتهيئون للرجوع إلى مكة وانشغلوا ومعهم نساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الأذن والأنوف وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها ثم لفظتها.

أما نساء المسلمين فكن يسقين الجرحى فتملأ(٢) القرب تفرغها فى أفواه المسلمين ثم ترجع فتملأ مرة أخرى وهما عائشة وأم سليم .

وكانت من هؤلاء النسوة أم أيمن حاضنة الرسول فقد سارعت إلى ساحة القتال فأخذت تسقى الجرحى فرماها رجل مشرك يقال له حبان بسهم فوقعت وتكشفت فضحك عدو الله وقهقه عاليًا. فشق ذلك على رسول الله ﷺ فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهمًا لا نصل له وقال: ارم به، فرمى به سعد فوقع السهم فى نحر حبان (٣)فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ وقال: استقاد لها سعد أجاب الله دعوته .

(١)

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٢ ص٨٠.

(٣) صحيح البخارى ١/ ٤٠٣، ٢/ ٥٨١.

استقاد: أى أخذ بثأرها وبحقها ــ انظر صحيح البخارى والسيرة الحلبية ٢/ ٢.

وجاء على بماء فغسل رسول الله ﷺ عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه .

ولما هم المشركون بالانصراف وقف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم ابن أبى قحافة ــ يقصد أبا بكر ــ فلم يجيبوه.

أفيكم عمر بن الخطاب، فلم يجيبوه.

وكان النبى ﷺ قد منعهم من الإجابة ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة فظن أنهم قتلوا.

فلم يستطع عمر السكوت وقال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله ما يسوؤك.

فقال أبو سفيان: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم قال: أعل هبل.

فقال النبى ﷺ على الفور: ألا تجيبونه؟.

فقالوا: فما نقول؟ قال: قولوا:

الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال النبى: قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم.

وبعد ذلك تفرغ المسلمون لتفقد القتلى والجرحى بعد انصراف قريش فقال زيد بن ثابت: بعثى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى: «إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق (يوشك أن يموت) وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرنى كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف.

وفاضت نفسه من وقته[٢] أى فاضت روحه ومات، وأشرف رسول الله بعد ذلك على الشهداء فقال: أنا شهيد على هؤلاء إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه اللون لون الدم والريح ريح المسك .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٥.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٦.
(٣) ابن هشام ٢/ ٩٨.

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر ﷺ أن يردوهم فيدفنوهم فى أماكنهم وألا يغسلوا وأن يدفنوا كما هم بثيابهم وقد بكى رسول الله ﷺ على حمزة فقد وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشج من البكاء ـــ والنشج هو الشهيق ـــ وفى النهاية: اتجه رسول الله ﷺ إلى ربه فأثنى عليه ودعاه قائلاً: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك... إلخ[١].

عاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة ومعه المسلمون بعد دفن الشهداء ودعا ربه وأثنى عليه.

وفى الطريق لقيته حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت ثم نعى لها زوجها مصعب ابن عمير فصاحت وولولت: فقال لها رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها بمكان[٢] وغير ذلك من المواقف والمشاهد العظيمة.

وعاد الرسول إلى المدينة وكان مجموع قتلى المسلمين سبعين أغلبهم من الأنصار خمسة وستون رجلاً منهم ورجل من اليهود وأربعة من المهاجرين فقط أما قتلى المشركين فهم اثنان وعشرون قتيلاً[٣].

طمع مَنْ فى نفوسهم مرض بعد هزيمة أحد فقد تأثرت هيبة المسلمين وأحاطت الأخطار بالمدينة بعد غزوة أحد وكشف اليهود والمنافقون والأعراب ممن هم حول المدينة عن وجههم الحقيقى الذى يعادى المسلمين وكانوا يخفونه خوفًا من شوكة المسلمين القوية وهمت كل طائفة منهم أن تنال من الإسلام والمسلمين وكانت هذه المخاطر على النحو التالى.

١- بنو أسد تهيئوا للإغارة على المسلمين فى المدينة.

٢- وقامت بنو عامر بمكيدة ويعرف بيوم بئر معونة قتل فيها سبعون من الصحابة.

٣- بنو النضير حاولوا قتل النبى ﷺ.

ولنرى ماذا حدث فى كل هذا.

---

(١) انظر صحيح البخارى فى الأدب المفرد والإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٢٤.
(٢) السيرة لابن هشام ٢/ ٩٨.
(٣) غزوة أحد فتح البارى ٧/ ٣٥١ وابن هشام ١١٢: ١٢٩.

١- سرية أبى سلمة لبنى أسد:

يعد بنو أسد بن خزيمة أول من نهض بعداء ضد المسلمين بعد غزوة أحد فقد جاءت الأخبار تقول: إن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى جيش من قومهما ومن أطاعهما من القبائل يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فتصدى رسول الله ﷺ على الفور للموقف وبعث بسرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء وفاجأ أبو سلمة بنى أسد فى ديارهم قبل أن يقوموا بغاراتهم فتشتتوا واستولى المسلمون على إبلهم وغنمهم فاستاقوها وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

كانت هذه فى بداية محرم سنة ٤ هجرية وعاد أبو سلمة وقد أصابه جرح ونفر عليه منذ قتال يوم أحد وظل على هذه الحال حتى مات[١] وكان لهذه السرية أثر فى استعادة زمام المبادرة وإرسال رسالة واضحة لكل من تسول له نفسه أن بالمسلمين ضعفًا أو تخاذلاً ولكن لم تكن كافية فجاء بعدها ما يؤكد هذه الرسالة.

عبد الله بن أنيس وخالد الهذلى:

بلغ رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلى يجمع الناس ويحشدهم لحرب المسلمين فأرسل إليه ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائبًا من المدينة ثمانى عشرة ليلة ثم عاد يوم السبت لسبع بقين من المحرم وقد قتل خالد بن سفيان الهذلى وجاء براية فوضعه بين يدى النبى ﷺ فاعطاه عصا وقال: هذه آية بينى وبينك يوم القيامة فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٧) يوم الرجيع هو يوم الرجال فرجال هذا اليوم كوكبة نادرة من البطولة

(١) زاد المعاد ٢/ ١٠٨.

والإيمان وقدوة أبدية أصحاب المبادئ أول هؤلاء الرجال هو عاصم بن ثابت الأنصارى الذى ضرب المثل فى فن القتال والجهاد فها هو الرسول ﷺ يسأل المسلمين من ليلة بدر فيقول: كيف تقاتلون؟ فيقف عاصم بن ثابت فيأخذ القوس والنبل ويقول: إذا كان القوم قريبًا من مائتى ذراع كان الرمى وإذا دنوا حتى الرماح كانت المداعبة أو الملاعبة بالرماح حتى تتقصف فإذا انقصفت وضعناها وأخذنا السيوف وكانت المجالدة.

فقال ﷺ: هكذا أنزلت الحرب من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم بن ثابت، كانت هذه الكلمات هى شهادة لبطولة عاصم وفروسيته تعود إلى أحداث هذا اليوم المبارك فنتحدث عن الزمان والمكان.

زمان هذا الحديث كان عقب الهجرة بسته وثلاثين شهرًا فى صفر من السنة الرابعة لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

أما المكان فهو الرجيع وهو اسم ماء أو بئر لهذيل بن مدركة بن إلياس بين مكة وعسفان وقد دارت الأحداث بالقرب من هذا الماء ماء الرجيع لكن نتساءل عن أسباب هذا الحديث ما هى أسباب أحداث يوم الرجيع؟.

وسبب أحداث يوم الرجيع هذا أن بنى لحيان وهم قوم من قبيلة هذيل قتل لهم رجل يدعى سفيان بن خالد بن نبيج الهذلى مشوا إلى قبيلتين هما عضل والقارة وهما قبيلتان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة وعرضوا عليهم عددًا من الإبل كجائزة لهم إذا هم استطاعوا أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليخرج لهم عددًا من رجاله كى يغدروا بهم فخرج سبعة منهم قاصدين رسول الله ﷺ مظهرين له الإسلام ولكن فى باطنهم غدرًا شديدًا.

فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

فاستجاب ﷺ لطلبهم وأرسل معهم ستة من أصحابه هم: عاصم بن ثابت الأنصارى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وخبيب بن عدى الأوسى البدرى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وخالد بن البكير(١).

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٧٠.

وأمر الرسول ﷺ عليهم عاصم بن ثابت وبعثهم بعد أن أوصاهم بمهمتهم الجليلة هذه خيرًا وخرج الرجال الستة معهم القوم الذين تظاهروا بالإسلام ودعوهم ليغدروا بهم طمعًا فى الحصول على عدد من الإبل والمال القليل من قبيلة بنى لحيان.

انطلق القوم حتى وصلوا الرجيع وإذا بهم يروا شيئًا عجيبًا لقد انطلق الفرسان السبعة لينفذوا خطتهم الماكرة فراحوا يستصرخو عليم هذيلاً ليساعدوهم فى قتلهم والقضاء عليهم ولم تمر لحظات حتى وجد أصحاب محمد الستة أنفسهم أمام مائتى فارس فما كان من الرجال الأبطال إلا أن استلوا سيوفهم واستعدوا للقتال مهما كان الثمن وإذا كان الثمن الشهادة فتلك غايتهم فطريقهم إلى الجنة يبدأ من الشهادة فى سبيل الله ودفاعًا عن دينه ودعوة رسوله الكريم ﷺ.

استعد الرجال للقتال فقال لهم القوم: إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم فرفض عاصم بن ثابت الأنصارى ومعه مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير هذا العرض وقالوا:

«والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا»(١).

وأنشد عاصم قائلاً:

ما علتى وأنا جلد نابل
والقوس فيها وتر عنابل
تذل عن صفحتها المعابل
الموت حق والحياة باطل
وكل عاصم إلا له نازل
بالمرء والمرء إليه آئل
إن لم أقاتلكم فأمى هابل(٢)

وقاتل عاصم الكفار حتى قتل واستشهد فى سبيل الله واستشهد معه أيضًا صاحباه مرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير.

ولما قتل عاصم بن ثابت الأنصارى ﷺ أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه لامرأة تسمى سلافة بنت سعد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها في غزوة أحد تقدم مالاً لمن

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١٢٦.

(٢) سيرة دخلان بهامش السيرة الحلبية ج٢ ص٧١.

يأتى لها برأس عاصم ولما خرج القوم لينالوا من جسد عاصم الطاهر وجدوا النحل وزنابيرها تمنعهم من ذلك وتحول بينهم وبين جسد عاصم فقال بعضهم: دعوه يمسى فتذهب النحل ونعود لننال منه ما نريد، فبعث الله سبحانه عز وجل سيلاً غزيرًا فاحتمل عاصمًا وذهب به وقد كان عاصم ﷺ قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا فى حياته فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع فى حياته فقال عمر بن الخطاب ﷺ حين بلغه أن النحل والدبور منعت عاصمًا: يحفظ الله العبد المؤمن رحم الله عاصمًا فقد كان طاهرًا فطهره الله ولم يمس مشركًا في حياته ولم يمسه مشرك فى مماته، مات الثلاثة عاصم ومرثد وخالد وبقى زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق الذين لانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة عسى أن يأتيهم الفرج من الله عز وجل فاستجابوا للكفار وأعطوهم أيديهم فأسروهم ثم انطلقوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها وطال بهم المسير حتى وصلوا واديًا قريبًا من مكة يسمى الظهران وعند هذا الوادى انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل المربوط به وأمسك بسيفه مسرعًا وتراجع عن القوم وهمَّ بقتالهم ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه فدفن هناك بالظهران ﷺ.

وأكمل الكفار المسير إلى مكة ومعهم خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة حتى وصلوا إليها وهناك استبدلوا خبيبًا وصاحبه زيدًا بأسيرين من قبيلة هذيل كانا بمكة.

فاشترى عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا بن عدى ليقتله ثأرًا لأبيه، أما زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوان بن أميه بن خلف ليقتله ثأرًا لأبيه الذى قتله المسلمون لكفره وعناده وتعذيبه المستضعفين منهم عندما كانوا فقراء ضعفاء بمكة ومن هؤلاء بلال مؤذن الرسول ﷺ الذى عذبه كثيرًا أمية بن خلف رأس الكفر من مكة عندما كانت الدعوة فى مهدها.

انتظر زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى مصيرهما المحتوم فقد قرر الكفار قتلهما وتحدث الناس عن مواقف عظيمة فها هو خبيب بن عدى فى بيت جارية تسمى «ماوية» فتتحدث عنه وتقول: كان خبيب بن عدى عندى حبسه الكفار فى بيتى فقد اطلعت عليه يومًا وإن فى يده عنقودًا من العنب ولا يوجد فى مكة بأسرها ولا فى أرض الله عنبا يؤكل.

وحدثت ماوية أيضًا عن خبيب بن عدى فقالت: حين حضره القتل قال لى: ابعثى لى بحديدة أتطهر بها للقتل.

فقالت ماوية: فأعطيت ابنى موسًا حاديًا وقلت: ادخل بها على هذا الرجل فى البيت فما إن وصل الغلام إلى الرجل حتى قلت فى نفسى: ماذا صنعت أصاب والله الرجل ثأره بقتل ابنى فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها بيده ثم قال: لعمرك ما خانت أمك عذرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلى ثم خلى سبيله وعاد الغلام إلى أمه.

وبعد ذلك خرج الكفار بخبيب بن عدى حتى إذا جاءوا به إلى مكان خارج مكة يسمى التنعيم ليصلبوه فقال لهم: إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا.

فقال الكفار: لك ما طلبت اركع ركعتين، فركع خبيب ركعتين فى خشوع وروية تامة ثم جاء إليهم بعد أن فرغ من ركعتيه.

وقال لهم: والله لولا تظنوا أنى إنما طولت جزعًا وخوفًا من القتل لاستكثرت من الصلاة.

فرفعه الكفار على خشبة وقاموا بربطة بحبل وأوثقوه فجعل يقول: اللهم إنا بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا اللهم احصهم عددًا واقتلهم متفرقين ولا تغادر منهم أحدًا، ثم قتلوه رحمه الله وصعدت روحه الطاهرة إلى السماء فى كوكبة ملائكية رائعة فقد فاز بجنة الخلد وأوفى بعهده لرسول الله ﷺ أن يقتل دون هذا الدين ودفاعًا عنه رحم الله خبيب بن عدى.

بقى أن نشهد لحظة وداع زيد بن الدثنة آخر شهداء يوم الرجيع فقد اشتراه كما ذكرنا صفوان بن أمية بن خلف وفى هذا اليوم بعث به صفوان مع عبد له على دين الكفر يسمى نطاس إلى التنعيم وأخرجوه من الحرم ليقتلوه واجتمع الناس من قريش.

فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد.

أتحب أن محمدًا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى.

فقال أبو سفيان متعجبًا: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

عند ذلك أمسك نطاس حربته وأسكنها فى صدر آخر شهداء يوم الرجيع الذين ضربوا المثل فى شراء دينهم بدنياهم فى شراء دينهم بأنفسهم وأموالهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

سرية القراء (بئر معونة):

قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٣، ٢٤)

مضت أربعة أشهر على غزوة أحد والرسول ﷺ فى المدينة بين أصحابه يترحم على قتلى هذا اليوم المشهود ولا يغيب عن خاطره أشهر شهداء أحد وهو حمزة بن عبد المطلب أسد الإسلام وفارسه وبينما كان الناس يتدارسون ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ ويقبل بعضهم على الرسول ﷺ يسأل عن آية ويناقش نصًا وفى هذه اللحظات دخل رجل مشرك على رسول الله ﷺ يسمى أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامرى ويعرف بملاعب الأسنة لفروسيته وخبرته فى القتال فلما دخل على رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام فلم يسلم وعرض[1] على النبى ﷺ هدية وهى عبارة عن فرسين وراحلتين فقال ﷺ: لا أقبل هدية مشرك وعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام مرة أخرى فقال: يا محمد إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومى خلفى فلو أنك بعثت معى نفرًا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فإنهم إن اتبعوك عز أمرك.

فقال ﷺ: إنى أخشى عليهم أهل نجد.

فقال أبو براء بن عامر: أنا لهم فهم فى زمامى وعهدى وجوارى فابعثهم يا رسول الله.

عند ذلك دعا رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون وكانوا ﷺ يحتطبون بالنهار فيجمعون الحطب ويسعون من أجل رزقهم ويصلون بالليل وأطلق عليهم اسم القراء لملازمتهم قراءة القرآن فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا فى ناحية من نواحى المدينة يصلون ويتدارسون القرآن فيظن أهلوهم أنهم فى المسجد عاكفين ويظن أهل مسجد رسول الله أنهم فى بيوتهم منصرفين عن ذكر الله عز وجل حتى إذا طلع الصبح اغتسلوا واستعذبوا الماء واحتطبوا وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسمعون من حديثه العذب ويقيمون سنته الطيبة الشريفة.

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٧٦ بالهامش سيرة دحلان.

هؤلاء وعلى رأسهم المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون وكانوا رضى الله عنهم كما ذكرنا حفاظًا للقرآن وقد كتب لهم الرسول ﷺ كتابًا حملوه وساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى موقع بين أرض بنى عامر والحرة تبعد عن المدينة عدة أميال وكان من القراء السبعين «حرام بن ملحان الأنصارى» شقيق أم سليم رضى الله عنهما وخال أنس بن مالك رضى الله عليهم كتب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل زعيم بنى عامر.

وهو ابن شقيق أبى براء عامر ملاعب الأسنة الذى جاء إلى الرسول ﷺ ودعاه أن يرسل هؤلاء القراء الكرام.

تقدم حرام بن ملحان من الطفيل بن عمرو وسلمه كتاب رسول الله ﷺ.

ترى هل استجاب الطفيل بن عمرو لدعوة رسول الله ﷺ؟ أم تمادى فى غيه وكفره؟؟.

فزت ورب الكعبة

أخذ الطفيل بن عمرو رسالة رسول الله ﷺ ونادى قومه فى سخرية واضحة فقال: يا أهل بئر معونة أتى إليكم رسول النبى ﷺ فآمنوا بالله ورسوله.

ثم أشار فى غدر إلى رجل من أتباعه فجاء من خلف حرام بن ملحان ﷺ وطعنه بخنجره طعنة نافذة غادرة من سفيه من السفهاء صرخ بعدها حرام بن ملحان قائلاً: فزت ورب الكعبة وكرر فزت ورب الكعبة.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يعرفون أن الشهادة فى سبيل الله فوز عظيم بجنة عرضها السموات والأرض بحكم عقيدتهم ودينهم الحنيف لذلك فقد أصابت الدهشة أعداء الله وهم يسمعون صرخة رجل يقتل فيقول وهو يتهادى على الأرض وقد أصابته الطعنة فى مقتله (فزت ورب الكعبة) واستشهد البطل حرام بن ملحان على يد خائنة آثمة، استشهد فى سبيل الله وهو باطل من أبطال القراء تهاوى جسده الطاهر على الأرض وهو يردد كلمات الشهادة ثم يضيف عبارته الشهيرة [فزت ورب الكعبة] حتى صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها عز وجل ثم نادى الطفيل بن عمرو قومه لينقضوا

على بقية القراء المسلمين الذين أرسلهم الرسول ﷺ فخرج بنو ذكوان وبعض حلفائهم فأحاطوا بالقراء من جميع الجهات بجيش كبير جرار.

تقدم جيش الكفار وأحاط بالقراء وجردهم من سيوفهم وأسلحتهم ولكن الأبطال رفضوا أن يستسلموا بهذه السهولة رغم التفوق الساحق لأعدائهم فقاتلوهم وسقطوا فى ميدان القتال الواحد تلو الآخر.

وتساقط كل القراء شهداء وفازوا بالشهادة جميعًا باستثناء كعب بن زيد ﷺ فقد ظل يلعق جراحه وسط أصحابه الشهداء الذين سبقوه إلى الجنة فعاش بعد ذلك حتى نال الشهادة فى غزوة الخندق.

ولكن كيف يعلم رسول الله ﷺ أخبار القراء وقد قتلوا جميعًا ولم ينج منهم أحد ليعود إلى المدينة فيبلغ الرسول ﷺ بما حدث لأبطال المسلمين الذين لقوا مصرعهم جميعًا بينما سقط كعب بن زيد ﷺ وأثخنته الجراح فمنعته عن الحركة ولكن القراء عندما لقوا ربهم قالوا:

«اللهم بلغ عنا نبينا ﷺ أنا قد لقيناك فرضيت عنا».

فجاء خبرهم من السماء عندما أخبره جبريل بذلك فخرج ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا ورضينا عنه ورضى عنا وأرضانا.

وفى الوقت ذاته خرج عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار من بنى عمرو ابن عوف وأثناء سيرهما لمتابعة أخبار سرية القراء رأى كل منهما طيرًا تحوم على مكان قريب من بئر معونه فقال عمرو لصاحبه: والله إن لهذه الطير لشأنًا.

قال صاحبه الأنصارى: صدقت هيا بنا لنرى سر هذه الطير التى تحوم على هذا المكان.

وصل الرجلان إلى المكان الذى تحوم فوقه الطير فإذا القراء فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة فجال كل منهما حول جثث القتلى وأدركا ما أصاب المسلمين من مصاب فادح أدى إلى قتل أشهر قرائهم، فقال الأنصارى لعمرو بن أمية الضمرى: ما ترى؟ قال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر.

فقال الأنصارى: لا أترك هذا المكان دون الثأر للمنذر بن عمرو.

قال عمرو: الأحسن أن نعود فنبلغ رسول الله ﷺ.

فقال الأنصارى: ها هم الكفار قد أقبلوا ولن أترك سيفى حتى أبلغ منهم ما استطعت للثأر للمنذر وأصحابه قراء القرآن.

ودار قتال عنيف قتل على أثره الأنصارى البطل واستشهد فى سبيل الدفاع عن إخوته شهداء الإسلام والثأر لهم وأخذ القوم عمرًا بن أمية الضمرى أسيرًا فأخبرهم أنه من قبيلة مضر وكانوا على علاقة طيبة بهذه القبيلة وعلى عهد وحسن جوار مع هذه القبيلة فأطلقوا سراحه فعاد مسرعًا إلى المدينة(١).

وقد أثنى كل من حضر السرية ــ سرية القراء ــ على شجاعتهم وثباتهم فى سبيل الحق فهذا عامر بن طفيل يقول عن عامر بن فهيرة أحد أبطال القراء: عن رجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه؟!!.

قالوا: هو عامر بن فهيرة.

وقد رثى وبكى حسان بن ثابت شاعر الرسول شهداء القراء يوم بئر معونة وخص منهم المنذر بن عمرو فقال:

على قتلى معونة فاستهلى
بدمع العين سحًا غير نذر
على خيل الرسول غداة لاقوا
مناياهم ولاقتهم بقدر
أصابهم الفناء بعقد قوم
تخون عقد جعلهم بغدر
فيا لهفى لمنذر إذ تولى
وأعنق فى منيته بصبر
وكائن قد أصيب غدة ذلكم
من أبيض ماجد من سر عمرو

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١٣٦.

وكان الرسول ﷺ يذكر أصحابه فى بئر معونة ويدعو على الذين أصابهم وقد أصابه حزن شديد عليهم حتى إنه ﷺ كان يدعو على من قتلوا القراء عند بئر معونة وهو قانت يصلى آناء الليل وأطراف النهار.

رحم الله القراء وجمعنا بهم يوم الحشر الأكبر فقد خرجوا فى سبيل الله وقاتلوا وجاهدوا فى سبيل الله فقضوا نحبهم واستحقوا جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين من أمثال هؤلاء الذين نشروا دعوة الإسلام بأموالهم وأنفسهم ففازوا فوزًا عظيمًا، ومن أمثال هؤلاء العظماء الذين ضحوا بأنفسهم وبذلوا الغالى والرخيص من أجل نصرة دين الله.

غزوة بنى النضير ٤ هـ:

كان عمرو بن أمية الضمرى رجلاً من رجال المسلمين هو السبب المباشر لما حدث بين رسول الله ﷺ وبين بنى النضير.

وذلك عندما كان أحد القراء الذين أرسلهم الرسول إلى بئر معونة بقياده المنذر بن عمرو حتى نزلوا بئر معونة وكان هذا البئر لبنى عامر وهم من قبائل أطراف المدينة وأرسل المنذر جماعة القراء كما عرفنا أرسل حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب رسول الله ﷺ فقتله عامر ثم استعان ببنى سليم لمقاتلة القراء فلم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الضمرى[1].

وفى أثناء عودة عمرو بن أمية الضمرى إلى المدينة قابله فى الطريق رجلان من بنى عامر كان الرسول ﷺ قد أعطاهما جوارًا وأمانًا ولكن عمرًا قتلهما انتقامًا لمقتل المسلمين ولما علم الرسول ﷺ بذلك.. قال لعمرو: بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما فى أمان وجوار وقرر الرسول ﷺ أن يدفع ديتهما وأرسل عامر بن الطفيل يطلب دية هذين الرجلين فخرج الرسول ﷺ فى عشرة من أصحابه أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة معه قاصدًا ﷺ حلفاء بنى عامر وهم بنو النضير يستعين بهم ويطلب مساعدتهم فى دية الرجلين.

ويهود بنى النضير قبيلة من قبائل اليهود فى المدينة عاهدوا رسول الله ﷺ على عدم الاعتداء وعدم نصرعدو له عليه وكانوا يسكنون فى ضاحية بأطراف المدينة بها

(١) تاريخ الطبرى ج٣ ص٣٣: ٣٦.

خضرة ونخيل وماء تسمى منطقه العوالى وظل عهدهم مع رسول الله ﷺ أربع سنوات كاملة قبل أن تحدث هذه الغزوة.

فلما أتاهم الرسول ﷺ قالوا مرحبين: «نعم يا أبا القاسم نعينك ما أحببت مما استعنت به علينا» [(١)].

وكان هذا على لسان زعيم اسمه حيى بن أخطب ولكن متى كان لليهود عهد وميثاق؟ ولم يعرف عنهم عهد ووفاء وضمان لمواثيق.

جلس الرسول ﷺ فى انتظار ما أعطوه من أمان وسلام وحلاوة لسان تشاور القوم فيما بينهم فأقبل بعضهم على بعض يقول: لن نجد الرجل ـ يقصدون الرسول ﷺ ـ على مثل حاله هذه فمن رجل يعلو عن هذا البيت.. فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فخرج رجل منهم هو عمرو بن كعب يقول: أنا أقوم بهذا العمل ولكن رجلاً منهم هو «سلام ابن شكم» قال: «إنكم تعلمون أنه نبى وأنه سوف يعلم بما تأمرون به» وصعد رجل سطح داره ولم يتعظ بكلمات سلام بن مشكم صعد ليلقى الصخرة على رسول الله ﷺ وهو جالس فى جمع من أصحابه قريب من جدار البيت، ولكن الله عز وجل لن يترك نبيه ﷺ تحت رحمة الحجر الذى سيلقيه اليهودى الخائن فجاءه الخبر على الفور من السماء يبين له ما يكيدون له فانتصب ﷺ قائمًا وترك مكانه سريعًا بين دهشة أصحابه الذين تبعوه وعاد إلى المدينة على الفور ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم ﷺ بما همت به اليهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة الأنصارى إلى بنى النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنونا بها وقد أجلناكم عشرًا فمن وجدنا بعد ذلك بها ضربنا عنقه.

ولم يجد يهود بنى النضير مناصًا من الخروج فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل لكن رئيس النفاق والمنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى ابن سلول بعث إليهم يقول: اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون معكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢.

وقد بين القرآن أن هذا الرجل كاذب لن ينصر أحدًا كما ادعى فقال عز وجل ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

(الحشر: ١٢)

استطاع هذا الوعد الكاذب من الرجل المنافق عبد الله بن أبى أن يجعل اليهود أكثر ثقة فى أنفسهم من ذى قبل فاستقر رأيهم على المعارضة ومحاربة محمد ﷺ وعصيانه وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

وكان بنو النضير على درجة من القوة تجعل الحذر عند قتالهم ضروريًا وتجعل استسلامهم أمرًا صعبًا ولكن ما حدث فى بئر معونة وغيره من غدر وخيانة للمسلمين جعلهم يصرون على قتال بنى النضير مهما كلفهم الأمر وخاصة أنهم حاولوا اغتيال رسول الله ﷺ، فلما بلغ الرسول ﷺ جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه ثم نهض لمحاربة القوم فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وصار إليهم وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء فلما وصل إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم فى ذلك فأمر الرسول ﷺ بقطعها وتحريقها.

وفى أثناء الحصار استطاع على بن أبى طالب أن يوقع فرسانهم بقيادة رجل منهم يسمى عزوك فى كمين.. هربوا على أثره وقتل عزوك ثم خرج الزبير بن العوام لملاحقة الفرسان الهاربين ولحق بهم وفتك بهم جميعًا.

وشدد المسلمون الحصار على يهود بنى النضير واهتز اليهود وخافوا ولما علت النيران تحرق النخيل... قذف الله فى قلوبهم الرعب وحبهم للمال جعلهم يقولون بصوت عال: «يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها».

أرادوا من هذا الكلام أن يستدروا عطف المسلمين ولم يجب المسلمون وتأثروا به فنزل قول الله عز وجل يؤيد ما يفعله المسلمون فى حالة خيانة اليهود للعهد فقال عز وجل: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الحشر: ٥).

وبعد ذلك استسلم اليهود على لسان رئيسهم حيى بن أحطب بعد حصار دام ليال قيل ست ليال إلى خمس عشرة ليلة فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت الإبل، فوافقوا ونزلوا على ذلك وخربوا بيوتهم بأيديهم وحملوا أعراضهم على ستمائة بعير فرحل أكثرهم بما فيهم أكابرهم مثل حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق إلى خيبر وذهبت طائفة منهم إلى الشام وأسلم منهم رجلان فقط هما: يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب فأخذا أموالهما واستولى رسول الله ﷺ على سلاحهم وأرضهم وديارهم وأموالهم.

وأعطى من أموالهم المهاجرين الأولين خاصة وأعطى من الأنصار أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين ــ لفقرهما ــ ورضى الأنصار وامتثلوا لحكمه فى ذلك وقد جاءت آيات من سورة الحشر فيهم فكان ابن عباس يسميها: سورة النضير(١).

أقام الرسول ﷺ بالمدينة مستريحًا إلى نصر الله إياه مطمئنًا إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم حذرًا دائمًا غدر عدوه باثًا عيونه ورجاله فى كل النواحى.

وأنه لكذلك على هذه الحال المطمئنة جاءته الأخبار أن جماعة من غطفان بنجد يستعدون لقتاله ويجمعون له يريدون حربه وكانت خطته ﷺ أن يأخذ عدوه على غرة قبل أن يعد العدة لدفعه لذلك خرج فى أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرقاع حيث اجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان استعدادًا للخروج إليه فلما رأوه طلع عليهم فجأة فى رجاله وأبطاله مهاجمًا مساكنهم فتفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم فأخذ المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجهم إلى المدينة على أنهم خافوا رجعة العدو عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار وجعل محمد يصلى بهم أثناء ذلك صلاة الخوف فكان جماعة منهم يظلون مستقبلين جهة العدو مخافة لحاقه بهم فى حين يصلى الآخرون مع النبى ﷺ ركعتين ولم يبد للعدو أثر ولم يظهر أحد يهدد أمن المسلمين أبدًا وعاد النبى ﷺ وأصحابه الأبطال إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يومًا عنها وهم بنصرهم جد فرحين.

واستعد النبى ﷺ للخروج إلى غزوة أخرى هى دومة الجندل وخرج النبى ﷺ بعد قليل من غزوة ذات الرقاع إلى غزوة أخرى هى دومة الجندل ودومة الجندل واحة

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩٠ – ١٩٢، زاد المعاد ٢/ ٧١: ١٢٠ صحيح البخارى ٢/ ٥٧٤، ٥٧٥.

على حدود ما بين الحجاز والشام تقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس ولم يقابل النبى ﷺ القبائل التى أراد مقابلتها هنا والتى كانت تغير على القوافل لأنها ما لبثت حين سمعت باسمه أن أخذها الفزع وولت مدبرة وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم وأنت ترى من موقع دومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ الإسلام وأصحابه من خوف وهيبة منهم.

وفى غزوة دومة الجندل خرج النبى ﷺ يسير الليل ويكمن النهار فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا منهم أحدًا فأقام الرسول ﷺ أيامًا وبث السرايا وفرق الجيوش فلم يجد منهم أحدًا ولم يلحق لهم أثرًا وذلك يدل على ما وصل إليه المسلمون من منعة وهيبة تجعل أعداءهم يفرون لمجرد سماع خبر مجيئهم وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن نجح ﷺ بمبادراته وخططه الحكيمة فى بسط الأمن والسيطرة على الموقف وتحويل مجرى الأحداث لصالح المسلمين بعد إجلاء بنى النضير عن المدينة، وبعد غزوتى غطفان ودومة الجندل اطمأن المسلمون إلى الحياة فى مدينتهم وذهبوا ينظمون حياتهم وعيشهم وكان النبى ﷺ على طمأنينته دائم الحذر من عدوه يبحث دائمًا عن أخبار هذا العدو الذى يتربص به فكان ﷺ يبث عيونه فى جزيرة العرب.

وكان اليهود أكثر أعداء النبى ﷺ فكانوا يعتقدون أن انتصاره ﷺ يصيبهم هزيمة فى بلاد العرب فهم ينافسون المسيحين فى دعوتهم ويودون الغلبة عليهم.

وفكر اليهود فى بدء حرب جديدة ضد النبى ﷺ وشرعوا فى التأثير من جديد على المسلمين وأخذوا يعدون العدة لضرب المسلمين ضربة مؤثرة.

وبدأت خطتهم بأن خرج منهم عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ ويوالونهم عليه ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم وكان على رأس هؤلاء حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق فلما جاءوا سألتهم قريش فقالوا لحيى بن أخطب: ما حال قومك؟ فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه ولما سألوه عن بنى قريظة قال: أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم.

عندئذ قالت قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم الذى أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم دينه؟.

قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، ولم يكتف اليهود بذلك بل خرجوا من عند قريش إلى غطفان وبنى مرة وبنى فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بنى سعد ومن أسد من كل هذه القبائل التى لها ثأر عند المسلمين وما زالو بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم مساعدة قريش على حرب محمد ﷺ.

خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان فى أربعة آلاف رجل وثلاثمائة فارس على فرسه أو جواده وألف وخمسمائة رجل يركب على بعير وعقد اللواء فى أحد لواء قريش.

وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن الفزارى فى رجال كثيرين وألف بعير أما قبائل أشجع ومرة فجاء كل منهما بأربعمائة محارب وجاءت سليم وهم أصحاب بئر معونة فى سبعمائة رجل واجتمع هؤلاء وانحازت إليهم قبائل بنى سعد وأسد حتى اكتمل الجيش عشرة آلاف رجل أو يزيد وجعلوا أبا سفيان أميرًا عليهم وقصدوا المدينة فلما وصلوا المدينة تبادلوا بينهم الزعامة على الجيش كل يوم زعيم أيام الحرب.

وبلغ نبأ هذا الجمع الرسول ﷺ مبكرًا وعلم به وهو فى البداية ولكن هذا العدد العشرة آلاف أفزع المسلمين فقد جمع العرب جميعًا ضدهم لتقضى عليهم.

وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ بالخبر المؤلم لقد نقض يهود قريظة العهد بل كادوا أن يتقاتلوا مع سعد بن معاذ حليفهم قبل الإسلام.. وهكذا انضم بنو قريظة إلى جيش الكفار والأحزاب وحاول رسول الله ﷺ أن يخفف البلاء عن المسلمين بمفاوضة غطفان على ثلث ثمار المدينة مقابل رجوعهم وكتب بذلك كتابًا استشار فيه الأنصار أصحاب الأرض والبساتين فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا لهذا حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال ﷺ: فأنت وذاك ـــ يقصد أنه وافق على رأى سعد ـــ فتناول سعد الصحيفة التى كتبها رسول الله ﷺ فمحا ما فيها من الكتاب[1] ثم أضاف سعد متحديًا: فليأتوا إلينا متحديًا بنى غطفان والأحزاب ولم يكتف الرسول ﷺ بهذه المحاولة للتخفيف عن

(١) السيرة لابن هشام.

المسلمين فانتهز فرصة مجيء نعيم بن مسعود ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله إنى أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمر فىَّ بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: خذل عنا فإن الحرب خدعة أراد أن يستخدم نعيم بن مسعود فى الحرب وكان نعيم نديمًا لبنى قريظة فى الجاهلية ومحل ثقتهم ويستطيع أن يلعب دورًا وهم لا يعلمون فالكفار يظنونه منهم ويهود بنى قريظة يعتبرونه حليفهم.

فذهب معهم إلى بنى فريظة ولم يكونوا قد علموا بإسلامه وأخبرهم أن قريشًا سوف تتخلى عنهم وتتركهم تحت رحمة الرسول وعليهم أن يأخذوا رهائن منهم حتى يضمنوا عدم خيانتهم.

ثم جاء نعيم إلى الكفار وأخبرهم أن بنى قريظة ندموا على نقضهم عهدهم مع الرسول وأنهم سيطلبون منهم رهائن يسلمونها للرسول إثبات حسن نيتهم وكى يعفو عنهم.

ولما طالبت قريش بعد ذلك من بنى قريظة أن تفى بوعدها معهم رد بنو قريظة بقولهم: إنهم لا يحاربون يوم السبت وطلبوا من قريش إعطاءهم رهائن، وهكذا تأكدت قريش من رواية ابن مسعود وصدقها وعلمت أن بنى قريظة خانوا عهدهم معها وظلت قريش تحاصر المدينة ولم يكن بين الفريقين قتال إلا الرمى بالسهام من بعيد بين الحين والآخر وكانت مبارزة على بن أبى طالب التى تحدثنا عنها هى الوحيدة التى تعد قتالاً فى المعركة.

وفيما كانت قريش قد تشككت فى أمر بنى قريظة وصدقهم معها هبت ريح شديدة اقتلعت الخيام وقلبت القدور وأطفأت النيران وهربت الخيل فى الصحراء وصاح أبو سفيان يقول: يا معشر قريش إنكم ما أصبتم بدار مقام ـــ يعنى أن الوقت ليس مناسبًا لبقائهم على تلك الحال ـــ لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون وما تطمئن لنا قدور (أى لا نستطيع أن نجهز طعامًا من الريح) ولا تقوم لنا نار ـــ أيضًا من شدة الريح ـــ ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به فانطلق به البعير وخلفه قريش وتبعته عطفان إلى بلادها وعاد الرسول إلى المدينة والمسلمون إلى ديارهم فى المدينة ونصر الله عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده

ونزل قول الله تعالى ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب: ٢٥).

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد رحيل الأحزاب يفكر فى موقفه لقد أذهب الله عنه عدوه الذى كان يهدده لكن اليهود يهود بنى قريظة لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع فى صفوفهم من شقاق وانقسام كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة فى القضاء عليهم.

كان لا بد من مواجهة هذا الخطر الكامن من المدينة وإخراجه من بين المسلمين.

وفى اليوم التالى الذى رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر وهو يغتسل فى بيت أم سلمة فقال: أوقد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم وما رجعت الآن إلا من طلب القوم فانهض بمن معك إلى بنى قريظة فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم وأقذف فى قلوبهم الرعب فسار جبريل فى كوكبة من الملائكة فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن فى الناس وناداهم.

من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وأعطى الراية على بن أبى طالب وقدمه إلى بنى قريظة فسار حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ وخرج رسول الله ﷺ فى جيشه من الصحابة مهاجرين وأنصار حتى نزل على بئر من آبار بنى قريظة يقال لها بئر أنا وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ونهضوا من فورهم وتحركوا نحو قريظة وأدركتهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك وإنما أراد سرعة الخروج فصلوها فى الطريق.

وتحرك الجيش الإسلامى جماعات إلى بنى قريظة حتى اكتملوا ثلاثة آلاف والخيل ثلاثون فرسًا فحاصروا حصون بنى قريظة ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا فى دين محمد ﷺ فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم وقال لهم: والله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم.

وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم ويخرجوا إلى النبى ﷺ بالسيوف مصلتين يحاربونه حتى يظفروا بهم أو يقتلوا عن آخرهم.

وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكسبوهم يوم السبت لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه.

فرفضوا أن يجيبوه إلى واحدة من الثلاث حينئذ قال سيدهم كعب بن أسد وقد اعتراه غضب شديد: ما رأيت فيكم رجلاً حازمًا ولم تجد بنو قريظة بعد رد هذه الأمور الثلاثة إلا أن يوافقوا وينزلوا على حكم رسول الله ﷺ إلا أنهم لم يفقدوا الأمل فاستمروا فى المراوغة فأرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم لكى يعرفوا ما سيحل بهم إذا نزلوا على حكم النبى ﷺ فبعثوا إلى النبى ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره وكان أبو لبابة حليفًا لهم وكانت أمواله وأهله فى منطقتهم فهو جار لهم فلما رأوا أبا لبابة قام إليه الرجل وجهش النساء والصبيان يبكون فى وجهه حتى يرق لهم فرق لهم.

فقالوا: يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه يقول إنه الذبح وأحس أبو لبابة بإشارته هذه أنه خان الله ورسوله لأن أبا لبابة عرف أن الرسول ﷺ سيأمر بقتلهم إن هم نزلوا على حكمه ولذلك قال لهم أبو لبابة مجيبًا على سؤالهم بإشارة من يده إلى حلقه موضحًا لهم أن الذبح سيكون من نصيبهم إن هم رضوا بحكم الرسول ﷺ .

وأدرك أبو لبابة على الفور خطأه فندم على هذه الإشارة التى تعد إفشاء لسر من الأسرار العسكرية لرسول الله ﷺ وللمسلمين والتى يجب كتمانها على الأعداء.

ولما ندم الرجل على فعلته انطلق هائمًا على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله وعمد إلى المسجد وربط نفسه إلى عمود من أعمدته قال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت وعاهدت الله ألا أطأ بنى قريظة أبدًا.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبر أبى لبابة وكان ﷺ قد سأل عنه عندما أبطأ فى العودة قال ﷺ:

«أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له وأما ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه».

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى.

وقالت أم سلمة: إن رسول الله ﷺ قال: تيب على أبى لبابة.

قالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟.

قال: بلى إن شئت فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب على نساء النبى الحجاب.

فقالت: يا أبا لبابة.. أبشر.. فقدد تاب الله عليك؟ فلما سمع الناس ذلك سارعوا لإطلاقه.

فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا لصلاة الصبح أطلقه وظل الرجل مربوطًا بعمود المسجد ست ليال تأتيه زوجته عندما يحين وقت الصلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالعمود أو الجذع(١).

ولم يهدأ يهود بنى قريظة فى حصونهم ولم يستكينوا بل أرسلوا أحدكم وهو شاس ابن قيس فكلم رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك الأموال والخروج بالنساء والصبيان وما حملت الإبل.

فرفض الرسول ﷺ.

فقال شاس بن قيس: تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل.

فأبى رسول الله ﷺ فعاد شاس إليهم حزينًا يبلغهم النبأ الحزين جزاء بما فعلوا وعقابًا لهم لنقضهم العهد وخيانتهم فلما أصبحوا وهجم عليهم المسلمون قال الأوس: يا رسول الله إن بنى قريظة كانوا موالينا عندما كنا نختلف مع الخزرج فى الجاهلية.

وأراد الأوس أن يعاملهم مثل بنى قينقاع الذين هم موالى الخزرج حين عفا عنهم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد مصابًا فى غزوة الخندق بسهم ويعالج فى خيمة الجرحى والمصابين.

فأقبل عليه بنو قريظة يقولون: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإنما رسول الله ولاك لتحسن فيهم فأجابهم سعد قائلاً: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم.

وجاءه رسول الله ﷺ يسأله الحكم فقال سعد:

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال... وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء.

فقال الرسول ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات.

ثم جىء بهم فى بيت كيسة بنت الحارث وتم حبسهم هناك ونفذ فيهم حكم الله فضربت أعناقهم وكان فيهم حيى بن أخطب عدو الله قالت السيدة عائشة أم المؤمنين: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة.

قالت: والله إنها لعندى تحدث معى وتضحك ظهرًا وبطنًا.. ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله.

قالت: أقتل!!.

قلت: ولما قالت: أحدث أحدثته وقد اعترفت بفعلتها الماكرة فقد قتلت مسلمًا بحجر الطاحون واسمه خلاد بن سويد فانطلق بها فضرب عنقها.

وهكذا نفذ حكم الله فى أعداء الله الذين أراد رسوله ﷺ العهد معهم فلم يستجيبوا للدعوة الطيبة واستجابوا للشر والمكر والخداع وكان نصر الله عظيمًا.

ومات سعد بن معاذ ﷺ متأثرًا بجراحه فى غزوة أحد واستشهد من المسلمين فى هذه الغزوة خلاد بن سويد الذى أسقطت عليه المرأة اليهودية الحجر ومات أيضًا من المسلمين أبو سفيان بن محصن ودفن فى مقبرة بنى قريظة وعاد المسلمون إلى المدينة بنصر الله الذى وعدهم وخاب ظن المنافقين لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢).

بل وعدهم هو الكاذب ووعد الله هو الصادق.

يوم القصاص

سرية عبد الله بن عتيك لأبى رافع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣).

هذه السرية المباركة كانت من أجل القضاء على رجل كافر تطاول فى كفره على أهل الإسلام هذا الرجل هو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ كان يؤذى الرسول ﷺ ويعين عليه أعداءه وغيرهم بالمال والرجال.

كان من أهل خيبر تاجرًا كبيرًا اتسعت تجارته وكثر ماله وسعى للجاه والسلطان فى مكان وجوده كما سعى عبد الله بن أبى ابن سلول فى المدينة لكى يتوج عليها ملكًا وتوقف سعيه عندما أشرق نور الهجرة النبوية فأصبحت المدينة عاصمة الإسلام والمسلمين قبل العودة إلى مكة وفتحها فى السنة العاشرة من الهجرة وقد كان أبو رافع ممن سعوا حثيثًا للقضاء على محمد ودعوته بكل ما يملك من مال ورجال وجاه وسلطان وكان من أشهر ما سعى إليه لإيذاء المسلمين تحريض الكفار على المسلمين فى غزوة الأحزاب «الخندق».

فعندما تم للمسلمين إجلاء بنى النضير من أماكنهم فى المدينة وهم بطن من بطون اليهود فى المدينة عندما تم ذلك خرج أشراف اليهود وعظماؤهم أمثال أبى رافع سلام ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وهوذة بن قيس وأبو عامر وهو رجل فاسق من أشراف اليهود خرجوا جميعًا إلى مكة حتى قدموا على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم حتى نستأصل هذا الرجل فنقضى عليه وعلى دعوته التى يسميها الإسلام[١].

---

[١] السيرة الحلبية ص٦٨، ٦٩.

فأجابهم أبو سفيان: مرحبًا وأهلاً بكم فأنتم أحب الناس إلينا فأحب الناس إلينا من أعاننا على محمد وعلى عداوته.

ثم أضاف أبو سفيان موجهًا حديثه لأبى رافع بن سلام بن أبى الحقيق: لكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم فسجد أبو رافع وصحبه من أشراف اليهود لأصنام أبى سفيان.

واجتمع الناس من قريش حولهم وقالوا لهم: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم فأخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دين محمد؟.

فأجابوهم: بل دينكم خير من دينه!! وأنتم أولى بالحق منه!!.

عند ذلك كرر الناس من قريش عليهم السؤال فقالوا: نحن أهدى سبيلاً أم محمد؟!.

فقال أبو رافع وصحبه زعماء اليهود فى المدينة: أنتم أهدى سبيلاً لأنكم تعظمون هذا البيت ــ يقصدون الكعبة ــ وتقومون على السقاية وتنحرون البدن لتكرموا ضيفكم وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم فأنتم أولى بالحق من محمد فأنزل الله سبحانه عز وجل الآية الكريمة.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥١: ٥٤).

بعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة علم الرسول ﷺ بمن أرادوا به وبالإسلام سوءًا ولم يكتف أبو رافع سلام بن أبى الحقيق بذلك بل ذهب إلى غطفان وهم قبيلة من مشركى العرب وأعانهم بالمال الكثير على رسول الله ﷺ فخرجوا فى زمرة قريش وبذلك ساهم هذا الكافر فى تحزيب الأحزاب يوم الخندق ضد المسلمين ورسولهم الكريم ﷺ وكان لا بد من القصاص من هذا الرجل الذى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك النسل بماله الذى أعطاه له ربه.

ومن سوء حظ هذا الرجل الكافر كان هناك تنافسًا بين الأنصار من الأوس والأنصار من الخزرج تنافس على قتل أعداء الإسلام من اليهود فقد قتل رجال من

الأوس وهم أنصار رسول الله ﷺ عبد الله بن مسلمة وأبو نائلة وغيرهم من أعداء الإسلام مثل كعب بن الأشرف.

عند ذلك جلس القوم يتذاكرون من يشابه كعب بن الأشرف وأصحابه فى العداوة لرسول الله ﷺ فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق ولما كان التنافس على التقرب إلى الله ورسوله بين الأوس والخزرج من أنصار اليهود فلا تفعل الأوس شيئًا من ذلك إلاث فعلت الخزرج نظيره وبالعكس.

ويقولون فيم بينهم: والله لا يذهبون بهذا فتيلاً علينا فى الإسلام أى لا يتفوقون علينا فى طاعة الله ورسوله هكذا كانت روح المنافسة بين المؤمنين الذين نذروا حياتهم من أجل الدعوة فكانوا لا يهابون فى الحق جبروت ظالم ولا يخشون فيه لومة لائم عند ذلك كانت أخبار أعداء أبى رافع سلام بن أبى الحقيق قد وصلت حدًا لا يمكن الصبر عليه مرة أخرى انتدب الرسول ﷺ لقتل هذا الكافر خمسة من الخزرج وكان يعلم ما يدور فى خاطر أنصاره ويعلم أن من الخزرج من يريد أن يكلف بمهمة القضاء على أعداء الإسلام كما سبق لإخوانهم من الأوس نالوا شرف الجهاد فظنوا أنهم أفضل منهم بعملهم هذا فتنافسوا ورغبوا انتدب ﷺ عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة لقتل هذا الكافر الماجن الذى أصبح خطرًا على الإسلام والمسلمين ولا بد من استئصال رأسه العفنة التى سخرت كل ما وهبها الله من نعم فى إيذاء رسوله والمؤمنين من أصحابه والصابرين من رجاله الذين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل دعوة نبيهم الكريم وطاعة لربهم استأذن عبد الله بن عتيك وأصحاب رسول الله ﷺ فى أن يستخدموا الحلية ويتكلموا بما يتوصلون به إليه من حيلة فأذن لهم رسول الله ﷺ وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ﷺ(١) وقال لهم ﷺ كلماته التى يقولها لكل من يخرج فى سبيل الله: «اغزوا جميعًا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا فهذا عهد الله وسنة نبيه فيكم»(٢).

خرج الرجل حتى وصلوا خيبر واقتربوا قليلاً من دار الفاسق أبى رافع سلام بن أبى الحقيق وانتظروا حتى حل الظلام واستطلعوا دار الرجل فعلموا أنه يسكن فى مكان

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص١٥١.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٤٦٨.

عال من دار له درج خشبى ولا يمكن الوصول إليه إلا بصعود هذا السلم الخشبى، دخل الرجال دار سلام بن أبى الحقيق خفية فقد حل الظلام فتسوروا الدار وتخطوا أسواره حتى لا يراهم أحد ومروا بالدار وبغرفه فلم يدعوا ولم يتركوا حجرة فى الدار إلا أغلقوها على من فيها حتى لا يكونوا نجدة لعدو الله عندما يستغيث بهم ويستعين بهم صعد الرجال السلم الخشبى درجة درجة وقد أخذوا حذرهم حتى لا يثيروا شكًا لديه ووصلوا أمام حجرته فطرق أحدهم الباب فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم؟.

قالوا: ناس من العرب جئنا إلى أبى رافع.

قالت: وما لكم وأبا رافع؟.

فأجابها عبد الله بن عتيك: جئت أبا رافع بهدية وهنا نذكر أن عبد الله بن عتيك وأصحابه ﷺ استأذنوا الرسول ﷺ فى أن يتكلموا بما يتوصلون به الحيلة إليه فلا جناح عليهم إن قالوا جئنا بهدية وفى الأصل لم يحمل عبد الله بن عتيك وأصحابه ﷺ إلا السيف ليقضى به على رجل حارب الإسلام والمسلمين وساهم فى تجهيز جيوش الأحزاب لمهاجمة المدينة والقضاء على رجال محمد ﷺ وعلى دعوته.

نعود إلى الرجال.. عندما قال عبد الله بن عتيك: جئت أبا رافع بهدية، فتحت زوجته الباب وقالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجرة، وجدوه وهو على فراشه ما دلهم فى الظلمة عليه إلا بياضه فبادروه بضرباتهم وقد كبروا جميعًا لانتصارالحق على الباطل وراح عبد الله بن أنيس أحد الرجال الأبطال يقول يكفينى، يكفينى نعم يكفيه أنه خلص المسلمين من شر هذا الرجل الذى بث سمه فى كل مكان ولم يهده عقله ولا بصيرته إلى الصراط المستقيم فكان القتل جزاءه.

سرية زيد وأسر أبى العاص صهر النبى ﷺ

جاء أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ فى قافلة لقريش جاء قادمًا من الشام فكان رسول الله ﷺ يسترد أموال المهاجرين التى نهبت منهم حين أخرجتهم قريش من ديارهم.

فلما علم بقدوم قافلة من قريش كلف أحد أبطال المسلمين باعتراضها وذلك فى جمادى سنة ٦هـ هذا البطل هو زيد بن حارثة الذى خرج على رأس مائة وسبعين راكبًا لاعتراض القافلة.

كان قائد القافلة زوج زينب ـ بنت النبى ﷺ ـ هو أبو العاص بن الربيع وكان قد أسر فى غزوة بدر ولما أسر تحدث عن أيام أسره يوم بدر فقال: كنت مع جماعة من الأنصار جزاهم الله خيرًا كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثرونى بالخبز وأكلوا التمر زادهم حتى إن الرجل لتقع فى يده الكسرة فيدفعها لى.

وقد تأثر أبو العاص بن الربيع بهذه المعاملة، ولما علمت زينب بأمره فى غزوة بدر أرسلت أخاه عمرو بن الربيع إلى المدينة بمال وقلادة لها كانت أمها خديجة الطاهرة قد أهدتها لها يوم زفافها لأبى العاص بن الربيع، فتأثر النبى ﷺ بوقعها ـ وتوجه إلى أصحابه قائلاً: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا، قالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوا أبا العاص بن الربيع وردوا إلى زينب ما أرسلته لفدائه.

وكان رسول الله ﷺ، قد أخذ عليه العهد أن يخلى سبيل زينب لأنها لا تحل له فهو ما زال مشركًا وهى مسلمة فيرسلها إليه فى المدينة.

فلما عاد إلى مكة جهزها وأرسلها مع أخيه كنانة بن الربيع ولكن الكفار خرجوا لمطاردتها وهى فى هودجها على بعير وكنانة بن الربيع يمشى خلفها أحيانًا وأمام البعير أحيانًا يحرسها فلحقه هبار بن الأسود ونافع بن عمرو فروعها هبار وأصابها عندما أطلق عليها رمحًا من رماحه وكانت حاملاً فغدت تنزف دمًا ولكن كنانة بن الربيع شقيق أبى العاص كان فارسًا وراميًا محترفًا، فأمسك برمحه واعترض الكفار وقال: والله ما يتقرب منى رجل منكم إلا ضربته بالسهم.

فرجع الناس وخافوا، استراجت زينب قليلاً فى مكة ثم خرجت بعد أن تركها الكفار وهى بصحبة كنانة بن الربيع وكان رسول الله قد كلف زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار للقائها فى الطريق فقال لهما: كونا ببطن ياجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها وتأتيانى بها[1].

(١) تاريخ الإسلام للذهبى المغازى ص٦٩.

خرج زيد وصاحبه ينتظران ولما جاء كنانة بها ليلاً سلمها إلى زيد وصاحبه الأنصارى.

وقدمت زينب إلى المدينة ومضى أبو العاص لتجارته فى الشام وكانت سرية زيد ابن حارثة التى لقيته وأحاطوا به ومن معه من عير قريش ورجال القافلة فلما وجدوا أنفسهم أسلموا أنفسهم وتجارتهم لرجال سرية زيد وكان فيها فضة كثيرة لصفوان بن أمية وأخذ زيد القافلة بما تحمل واستاقوا الإبل بينما أفلت منهم أبو العاص فأعجزهم وهرب منهم، وجاء زيد وأصحابه إلى النبى ﷺ ومعهم الغنائم فقسمها بينهم وأقبل أبو العاص بن الربيع ليلاً حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته وسألها أن تطلب له من الرسول ﷺ رد ماله عليه وكان معه من أموال الناس فوعدته خيرًا.

وبينما رسول الله ﷺ يصلى الفجر فى المسجد انبعث صوت امرأة تقول: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع[1].

فلما قضيت الصلاة وسلم النبى ﷺ قبل على الصحابة الكرام وقال: ما علمت بهذا وإنه يجير على الناس أدناهم ثم انصرف ﷺ فدخل على ابنته زينب رضى الله عنها ليعرف حقيقة الأمر فلما سمع منها الحقيقة قال: «قد أجرنا من أجرت والمؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم».

وسألت زينب أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه فصمت ﷺ قليلاً ثم أمرها ألا يقربها ما دام مشركًا وقال: أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له.

كانت زينب مسلمة وكان أبو العاص مشركًا ولا يزال على دين الشرك وبذلك حرم الله عليه زواج زينب وخرج رسول الله ﷺ وبعث إلى زيد بن حارثة والسرية التى جاءت بأبى العاص وماله وقافلته وقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فئ الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به».

فقالوا جميعًا: بل نرده عليه يا رسول الله.

فردوا عليه ما أخذوا منه حتى إن الرجل منهم ليأتى بالقربة القديمة فما تركوا شيئًا قليلاً أو كثيرًا إلا ردوه عليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٣٥.

وعاد أبو العاص بتجارة قريش التى كانت أمانة فى عنقه فكان موفور الكرامة وفيًا أمينًا وأعطى كل إنسان ما كان له من مال فى هذه التجارة ثم نادى قريشًا بصوت واضح:

يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم معى مال لم أرده عليه؟.

قالوا: لا، قد وجدناك وفيًا كريمًا وعند ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسلامه وشهد شهادة الحق وقريش مجتمعون عليه فقال والضمير أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يا معشر قريش ما منعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا خشية أن تظنوا بى إنما أسلمت لأذهب بأموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت أسلمت وعاد إلى المدينة ففرح به الرسول ﷺ وابنته زينب وانضم إلى قافلة الإسلام.

سرية الخبط:

قال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ (الإنسان: ٧: ١٢).

إن النصر الذى حققه المسلمون فى معاركهم لم يكن سوى صبر فى القتال وجهاد بالأنفس والأموال لم يتحقق هذا النصر عبثًا وإنما كان على حساب عزائم الرجال وأقدامهم وهوان الدنيا عليهم.

كانت المدينة يوم أمها الرسول ﷺ قلعة من قلاع الجاهلية فأنارها بنور الإسلام وأحالها إلى مدرسة تخرج منها نوع من الرجال صبروا على الضيم كان مسجدها العظيم يموج بمن ارتحل إليها من كبار الصحابة المهاجرين السابقين إلى الإسلام وجلة الأنصار الذين استقبلوا حليفهم ورسولهم وقائدهم فأصبحوا عيبته وسره حتى قال عنهم (أوصيكم بالأنصار خيرًا فإنهم عيبتى) من هذا المسجد خرج الصابرون فى سرايا فكانت الشجاعة فى غزوة وكانت المروءة فى سرية وتبين عفو الإسلام وتسامحه فى غزوة أخرى.

وفى هذه السرية بالذات ضرب الرجال المثل فى الصبر وتميز معدن بعضهم بالكرم والجود وبذل النفس والمال من أجل أخوة الإسلام والحب فى الله عز وجل فقد

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أمين الأمة واحد من العشرة المبشرين بالجنة ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً من جلة الصحابة وفرسان الإسلام بينهم عمر بن الخطاب ﷺ إلى أرض على ساحل البحر تسمى جهينة وكان ذلك فى رجب سنة ثمان للهجرة بعد أن نكثت قريش عهدها مع رسول الله وقبل فتح مكة.

وعند خروج الرجال زودهم رسول الله ﷺ بالزاد وقد كان جرابًا من التمر وعرفتم كما عرف قائدهم أن الهدف من الغزوة هو رصد عير قريش القادمة من الشام وتأديب أعداء الإسلام ولمحاربة حى جهينة الذين كانوا يضمرون شرًا للإسلام والمسلمين انطلقت قافلة الإيمان تحمل الماء والزاد وبعض من تمر المدينة حمله الرجال فى أمتعتهم حتى يتقوا شر المجاعة لو حدثت وقد كان ذلك.

فقد وصل الرجال إلى الساحل وأقاموا نصف شهر فأصابهم جوع شديد حتى بدءوا يأكلون الخبط وهو نبات من الطلح يخرج من الأرض الجبلية وكانوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تشققت شفاههم وتقرحت فى هذه الظروف كان لابد للقائد أن يحسب حسابه فأمسك أبو عبيده بجراب التمر الذى زودهم به الرسول ﷺ.

ونحن نسأل مع من سألوا أحد رجال هذه السرية وهو الزبير بن العوام فنقول: كيف كنتم تصنعون بالتمرة؟ يجيب الزبير قائلاً: «كنا نمصها كما يمض الصبى ثدى أمه ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومًا إلى الليل».

ونترك جابر بن عبد الله بن حرام أحد أنصار رسول الله يحكى ذكرياته عن هذه السرية وأيامها فيقول: زودنا النبى ﷺ جرابًا من تمر فكان يقبض لنا أبو عبيدة قبضة قبضة ثم تمرة تمرة فنمصها ونشرب عليها الماء إلى الليل حتى نفد ما فى الجراب فكنا نجنى الخبط فجعنا جوعًا شديدًا ثم أضاف جابر قائلاً: فألقى لنا البحر حوتًا كبيرًا فأمرنا أبو عبيده أن نأكل منه فأكلنا حتى شبعنا وحسنت أجسامنا.

وفى ظل هذه المجاعة كان لا بد لأصحاب الجود والكرم من المسلمين أن يبذل الرأى والجهد حتى يجد لمشكلة الطعام هذه حلاً جذريًا.

وها هو قيس بن سعد بن عبادة أحد أبناء الأنصار فأبوه سيد القوم فى أهله وشيخهم لما رأى ما بالمسلمين من جهد الجوع ومشقته وما أصابهم من جزاء ذلك من وهن وضعف حتى سمع أحدهم يقول: والله لو لقينا عدوًا ما كان من حركة إليه لما

بالناس من جهد فقد أصبحوا غير قادرين عن الحركة وبالتالى فهم عاجزون عن القتال بسيوفهم ورماحهم.

عند ذلك قام قيس وذهب إلى أهل هذا المكان وقال: من يشترى منى تمرًا أعطه له فى المدينة عندما نعود؟ يوفى لى ثمنه هاهنا.

فقال له رجل من أهل الساحل: أنا أفعل؟ لكن والله ما أعرفك فمن أنت؟.

قال قيس: أنا قيس بن سعد بن عبادة.

قال الرجل: أنا أعرف سعدًا وإن بينى وبينه خلة وصداقة فأبوك سيد أهل يثرب ماذا تريد إذن؟ قال قيس: أريد أن أشترى خمس إبل أذبحها لإخوانى هؤلاء، فباعه الرجل ما طلب منه وقال له الرجل: أشهد على بيعنا هذا من تحب.

فأشهد قيس نفرًا من المهاجرين والأنصار من بينهم عمر بن الخطاب ﷺ الذى أبدى اعتراضًا فى البداية لخوف من عدم قدرة قيس على سداد ثمن هذه الجزور وقال: أتدان ولا مال لك إنما المال مال أبيك سعد بن عبادة.

قال الرجل الذى باع الجزور والإبل لقيس بن سعد بن عبادة: «والله ما كان سعد ليخلى بابنه ولا يوفى عنه ما التزمه».

وامتدت يد قيس لما اشتراه من إبل وجذور فذبح منها للمسلمين أول يوم واحدة وفى اليوم الثانى واحدة وفى الثالث أيضًا واحدة أكل منها المسلمون حتى شبعوا ولما أراد أن ينحر لهم فى اليوم الرابع نهاه أبو عبيدة قائلاً: عزمت عليك وأمرك أن لا تنحر.

أتريد أن لا توفى بما التزمت للرجل ولا مال لك؟ فقال قيس بن عبادة ﷺ:

«أترى أن أبى يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى دينًا لابنه قدمه لقوم مجاهدين فى سبيل الله».

فصمت القائد أبو عبيدة وانصرف تاركًا هذا الجود والكرم لصاحبه وابن أهل الجود فقد اشتهر عن سعد بن عبادة وأهله فى المدينة الكرم والجود والمروءة منذ جاهليتهم وقبل إسلامهم.

ولما بلغ سعد بن عبادة ما حصل للمسلمين قبل قدومهم إلى المدينة قال: إن يكن قيس كعهدى به فلا بد أن ينحر للقوم ما استطاع الحصول عليه وعاد الركب إلى

المدينة وأقبل قيس على والده سعد بن عبادة، قال له سعد ﷺ، ما صنعت فى مجاعة القوم يا قيس؟[(١)].

قال قيس: نحرت لهم يا أبى ما استطعت.

قال سعد: أصبت يا بنى جزاك الله خيرًا.

قال قيس: ولكنى نهيت يا أبى عن النحر.

قال سعد: ومن نهاك؟.

قال قيس: أميرى أبو عبيدة.

قال سعد: ولم نهاك أبو عبيدة؟.

قال قيس: زعم أنه لا مال لى إنما المال لأبيك فقلت له: أبى يقضى عن الأباعد والأغراب ويحمل الطعام ويطعم الجائع ولا يصنع هذا معى؟ فوافق أبو عبيدة بن الجراح إلا أن عمر بن الخطاب أصر على المنع.

فقال سعد بن عبادة لولده قيس: خذ أربعة بساتين وسدد دينك للرجل الذى اشتريت منه الجزور فأوفى قيس للرجل بما عليه وزاده وفاء، ولما بلغ الرسول ﷺ ما فعل قيس بن سعد بن عبادة أثنى عليه وقال: إنه فى بيت جود والجود لمن شيمه أهل ذلك البيت يقصد بيت سعد بن عبادة.

هكذا كان المسلم يطعم أخاه المسلم الطعام على حبه يبتغى الجزاء والثواب من الله هنيئًا لكم آل سعد بن عبادة بما أطعمتم هنيئًا لكم عقبى الدار وحسن العطاء وجوده.

غزوة بن المصطلق:

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة ست من الهجرة وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار جهز قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ فبعث ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمى للتأكد من صحة الأخبار فذهب إليهم ولقى الحارث بن أبى ضرار فكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن هذه الأخبار صحيحة.

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص١٩٣.

أعد الرسول ﷺ صحابته وأسرع فى الخروج إليهم وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة فى فترة غيابه.

وكان الحارث بن ضرار قائد جيش الأعداء قد أرسل جاسوسًا يتجسس على المسلمين فوقع فى يد المسلمين فقتلوه لخيانته وإضماره السوء لهم ولما علم الحارث بن ضرار أن رسول الله ﷺ قابل جاسوسه وقضى عليه خاف خوفًا شديدًا ولذلك فقد تفرق عند من كان معه من قبائل العرب، ووصل رسول الله ﷺ إلى بئر ماء مياههم تسمى المريسيع وهيأ أصحابه للقتال وصفهم فكانت راية المهاجرين مع أبى بكر الصديق وراية الأنصار مع سعد بن عبادة فتراموا ساعة بالنبل ثم أمر رسول الله ﷺ بالهجوم فحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد وهجمة واحدة فكان النصر من عند الله وانهزم المشركون وقتل من قتل وسبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو.

وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث بن ضرار من بنى المصطلق ورئيسهم وقد وقعت فى نصيب ثابت بن قيس، ولكنها رغبت فى الزواج من رسول الله ﷺ فأعتقها وتزوجها تكريمًا لها لأنها ابنة سيد القوم، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة من أقاربها بنى المصطلق أسلموا جميعًا وقال الصحابة: أصهار رسول الله ﷺ(١).

وقد حاول المنافق عبد الله ابن أبى بن سلول ومن معه من المنافقين فى هذه الغزوة بذر نار الفتنة بين المسلمين بعضهم وبعض فاستغل موقفًا من المواقف لزرع الفتنة وكان رجلاً يكره الإسلام ويظهر أمام الناس أنه مسلم، ففى غزوة أحد انسحب برجاله فى وقت حرج وامتلأ شماتة عندما هزم المسلمون وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين أنه كان بعد التظاهر بالإسلام يقوم كل جمعة حتى يجلس رسول الله ﷺ لخطبة الجمعة فيقول: هذا رسول الله ﷺ نبيكم أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزوه واسمعوا له وأطيعوا.

---

(١) صحيح البخارى كتاب العتق ١/ ٣٤٥ فتح البارى ٧/ ٣٤١.

ولما حاول مقاطعة الرسول ﷺ أثناء خطبة جمعة من الجمع أخذ المسلمون بثيابه وأجلسوه وهم يقولون: اجلس لست بأهل لذلك، فغضب وخرج من المسجد وهو يقول: والله ما قلت بجرًا (خطأ) وإنما قمت أنصحه وأشدد أمره.

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال له: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغى أن يستغفر لى[1] وفى غزوة الأحزاب كان يشكك فى إيمان المسلمين ويثير القلق والاضطراب، وفى غزوة بنى المصطلق وبعد الفراغ من الغزوة كان الرسول ﷺ مقيمًا على ماء المريسيع وجاء الناس إلى الماء وازدحموا عليه فكان مع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جهجاه الغفارى فازدحم هو وسنان بن وبر الجهينى على الماء فاقتتلا فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين وكادوا يتقاتلون، فقال رسول الله ﷺ: أفبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعونا فإنها فتنة وبلغ ذلك المنافق عبد الله بن أبى ابن سلول فغضب وعنده جمع من قومه فيهم غلام صغير هو زيد بن أرقم وكان غلامًا صغيرًا فسمع عبد الله بن أبى المنافق يقول: أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، نقل الغلام زيد بن أرقم هذا الحديث إلى عمه فأخبره عمه رسول الله ﷺ وكان عنده عمر فقال عمر بن الخطاب للنبى ﷺ: مر عباد بن بشر فليقتله، فقال ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل وكان ذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها وارتحل المسلمون من المكان.

وهرع المنافق عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ يحلف بالله ويعيد القسم وشدد فى حلفه فلما حلف وأكثر الحلف أمام الناس قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد بالغ فى حديثه وأوهم ولم يحفظ ما قاله الرجل.

ولما سمع الغلام زيد ما قاله الناس تألم كثيرًا وهو يعلم أن عبد الله بن أبى منافق كذاب وهو صادق فيما نقل عنه.

---

(١) ابن هشام ٢٣/ ١٠٥.

وفى الطريق كان رسول الله ﷺ يمشى مطرقًا حزينًا مما سمع من حديث فلقيه أسيد بن الحضير الأنصارى وكان من أتباع عبد الله بن أبى قبل إسلامه فقال له ﷺ بعد أن رد تحيته واستغرب رحيله فى هذه الساعة قال ﷺ: أوما بلغك ما قاله صاحبكم؟.

قال أسيد: أى صاحب يا رسول الله؟.

فقال: عبد الله بن أبى، قال أسيد: وماذا قال؟.

فقال ﷺ: إنه قال: سيخرجن الأعز منها الأذل، فاستغرب الرجل ثم قال: هو والله الذليل وأنت الأعز يا رسول الله، ثم أضاف أسيد قائلاً: ارفق به يا رسول الله فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ملكًا وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

أراد أسيد ﷺ أن يخفف عن رسول الله ﷺ ودفع ما حدث فى نفسه.

وما هى إلا لحظات معدودة حتى نزل القرآن يؤكد صدق ما نقل زيد بن أرقم وكذب عبد الله بن أبى فأرسل رسول الله ﷺ إلى زيد بن أرقم وقال: إن الله قد صدقك(١).

وكان ابن هذا المنافق ــ وهو عبد الله بن عبد الله بن أبى ــ كان رجلاً مسلمًا صالحًا من الصحابة الأخيار فتبرأ من أبيه وجاء إلى رسول الله ﷺ يقول: إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى فإن كنت لا بد لا بد فاعلاً فمرنى يا رسول الله أقتله حتى لا يقتله غيرى وأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار!! فتذكرهنا كلمة رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ عند ما قال عمر: مر عباد بن بشر يقتله يا رسول الله فأجابه ﷺ، بهذه الكلمة قائلاً: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا.

وبعد ذلك يتذكر عمر ﷺ فيقول: « قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى».

ونعود إلى الحارث بن ضرار من بنى المصطلق فقد علم بسبى ابنته فأشار عليه القوم أن يأخذ كثيرًا من الإبل ويفتدى ابنته فراح يجمع الإبل ليذهب بها إلى المدينة ويطلق سراح جويرية ابنته ولم يكن قد علم بزواجها وكانت جويرية قد دخلت على

---

(١) انظر صحيح البخارى ١/ ٤٤٩، ٢/ ٧٢٧: ٧٢٩، وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠: ٢٩٢.

رسول الله ﷺ بعد أسرها وأخذها وقالت: «يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ووقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسى».

واستجارت برسول الله ﷺ.

فقال ﷺ وقد عز عليه قولها: «إننى بنت سيد قومها» ومن عادات العرب الطيبة المحمودة أن يجيروا من استجار بهم فأجارها رسول الله مما لا تقبله وقال لها: أقضى عنك كتابتك وأتزوجك؟ فأجابت: نعم يا رسول الله.

وتزوجها ﷺ ولما خرج النبأ قالوا: نعفوا عن أصهار الرسول من أهلها وكانوا كثيرى العدد وفى ذلك قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وجاء الحارث بالإبل وتوقف خارج المدينة ينظر إلى الإبل قبل أن يدخل على محمد ويعطيه الإبل ليفتدى ابنته نظر الحارث إلى العدد الكبير من الإبل الذى سيفدى به ابنته وتحسر على كثرة عددها وأعجبه اثنان من هذه الإبل فتركهما خارج المدينة ليعود فيسترجعها بعد أن يفتدى ابنته ودخل على رسول الله ﷺ ومعه الإبل قائلاً: يا رسول الله أفتدى ابنتى، فرد عليه الرسول ﷺ قائلاً: إذن ما شأن البعيرين اللذين تركتهما بظاهر المدينة؟!! (أى خارج المدينة) فارتبك الرجل وتعجب وأصابته الدهشة فقال فى صوت هامس متعجبًا: والله يا رسول الله ما علم بها أحد قط.

ثم صمت برهة قصيرة وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

اسلم الرجل وأراد الله له أن ينال من بركة ابنته أم المؤمنين جويرية بنت الحارث.

وأسلم كثير من بنى المصطلق وبعث إليهم رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط فلما سمعوا بقدومه خرجوا يستقبلونه ترحيبًا وتهليلاً فلما سمع الرجل بخروجهم خاف منهم وظن أنهم هموا بقتله مثلما فعل بالقراء يوم الرجيع فقد قتل الكفار الصحابى مرثد بن أبى مرثد وكان ذاهبًا لتعليمهم الإسلام والقرآن.

فعاد عقبة أدراجه إلى المدينة وقص على المسلمين ما حدث فهموا أن يغزوهم مرة أخرى وبينما الرسول ﷺ يتشاور بهذا الشأن مع أصحابه قدم وفدهم إلى رسول الله ﷺ

وقالوا: يا رسول الله ما قبلنا من الصدقة وبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله والله ما جئنا لذلك[1] فقبل رسول الله ﷺ إسلامهم وسلامة قصدهم.

في غزوة بني المصطلق حدث حادث الإفك أو الكذب والافتراء على أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها زوج رسول الله ﷺ وكان الرسول ﷺ قد خرج بالسيدة عائشة معه في هذه الغزوة وبعد أن فازت بالقرعة من بين زوجاته أيهم يخرج مع النبي ﷺ وكان يفعل ذلك مع نسائه كلما خرج إلى غزوة فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض الأماكن للراحة فخرجت السيدة عائشة من هودجها لقضاء حاجتها ففقدت عقدًا لاختها قد أعارتها إياه فرجعت تبحث عنه في نفس الموضع الذي فقدته فيه فجاء الرجال من المسلمين الذين كانوا يحملون هودجها فحملوه ووضعوه على البعير ظنًا منهم أنها به وكانوا يعرفون أن هودجها خفيف لانها رضى الله عنها كانت صغيرة السن خفيفة الجسم فرجعت عائشة إلى مكان الهودج فلم تجد أحدًا وقد وجدت العقد فقعدت مكانها وظنت أنهم سيكتشفون تخلفها فيرجعون ليأخذوها وفيما هي جالسة غلبها النوم فلم تستيقظ إلا عندما سمعت صوت رجل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون زوجة رسول الله ﷺ، وكان الرجل هو صفوان بن المعطل السلمي فأناخ راحلته وقربها إليها فركبتها وما كلمته كلمة واحدة ولم تسمع إلا كلمة: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم سار بها حتى مر بها فلما رأى الناس ذلك تكلم الناس كل بطريقته فمنهم من تكلم بالخير لكن المنافق عبد الله بن أبي كعادته تكلم بالسوء والإفك والكذب وأذاغ كلامًا سيئًا فلما دخلوا المدينة كثر الكلام في هذا الأمر فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فأشار عليه على ﷺ أن يفارقها ويأخذ غيرها وأشار عليه بعض الصحابة بالإبقاء عليها وأن لا يلتفت لكلام أعداء الإسلام.

واستعاذ رسول الله ﷺ في حديثه للمسلمين بالله من حديث عبد الله بن أبي، أما عائشة فما إن رجع الجيش حتى مرضت شهرًا وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئًا سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ المودة التي كانت تعرفها منه حين تشعر بمرض فلما ذهب المرض خرجت مع امرأة اسمها أم مسطح إلى الخلاء ليلاً فعثرت أم مسطح وهي تمشي فدعت على ابنها مسطح بن أثاثة وكان قد تحدث مع المنافقين في

(1) انظر السيرة الحلبية ج٢ ص٢٥٢ ط دار المعرفة بيروت.

حديث الكذب والإفك فلما قالت على ابنها تعس مسح أنكرت عائشة رضى الله عنها عليها ذلك فأخبرتها الخبر وأعلمتها ما يدور من حديث منذ أن جاءت من غزوة بنى المصطلق فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ لتأتى أبويها أبا بكر وأم رومان وتتأكد من الخبر ثم أتتها بعد أن استأذنت من زوجها رسول الله وعرفت الخبر فصارت تبكى يومين ولم تر النوم حتى ظنت أن البكاء سيقضى عليها وجاء رسول الله ﷺ فتشهد وقال: «يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه».

عندئذ توقفت عن البكاء وقالت لأبويها أن يجيبا فلم يدرى أبو بكر ولا زوجته ما يقولان لابنتهما الطاهرة الطيبة.

فقالت عائشة: فلئن قلت لكم: إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقوننى والله لا أقول إلا قول أبى يوسف (يعقوب عليه السلام) قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

صبرت عائشة ونزل القرآن يبرئها فجاء رسول الله باسمًا يقول لها: «أما الله فقد برأك» ونزلت الآيات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ وممن جلد من أهل الإفك: مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش جلدوا ثمانين جلدة، أما عبد الله بن أبى فقد أعد الله له عذابًا أشد من عذاب الدنيا وعادت المدينة إلى استقرارها ولكن هناك سرية جديدة لعبد الرحمن بن عوف لنرى ما سيحدث فيها.

سرية دومة الجندل:

قال رسول الله ﷺ:

«خذ اللواء يا بن عوف اغزوا جميعًا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم»[1] بهذه الكلمات الطيبة الرقيقة الناصعة الشريفة بعث بها رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل زوده من خلالها بتعاليم إسلامية عظيمة من أهمها أن المسلمين إذا خرجوا للغزو ونشر رسالة الإسلام يجب عليهم إلا يغلوا فلا يخونوا فى المغانم ولا يكون الغدر من طبعهم وسيمتهم ولا يقتلوا طفلاً صغيرًا، كانت هذه الكلمات عهد الله لعباده الذين

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص ٤٦٨.

صدقوا ماعاهدوا الله عليه وسيرة نبيه ﷺ للقائد عبد الرحمن بن عوف ﷺ وجنوده الأشارس الذين تحلوا بالأدب الإسلامى الرفيع والخلق القويم ترت ماذا حدث فى دومة الجندل؟! هذا ما نعرفه فى الصفحات التالية.

دومة الجندل هو حصن أو قرية ببلاد الشام بينها وبين دمشق مسير خمس ليال بالدواب وبينها وبين مدينة رسول الله ﷺ خمس عشرة أو ست عشرة ليلة وقد تطورت المواصلات فلم تعد الدواب هى وسيلة الناس للانتقال كما كان على زمان هذه الأحداث.

وكانت سرية دومة الجندل فى شعبان من السنة السادس للهجرة(١) وقد كان لبعث الرسول ﷺ عبد الرجمن بن عوف إلى دومة الجندل سببًا معروفًا وهو دعوتهم إلى الدخول فى دين الإسلام وكان ملكهم هو الأصبغ بن عمرو الكلبى يدين بدين النصارى وعرف عن هؤلاء الناس بخروجهم عن طاعة الإسلام والمسلمين وقد سكنوا بأطراف الشام.

البداية:

كانت البداية عندما خرج رسول الله ﷺ على الناس فى مسجده المبارك فى المدينة وأقبل عليه فتى من الأنصار فقال: يا رسول الله أى المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقًا، قال الفتى: فأى المؤمنين أكيس؟.

قال ﷺ: أكثرهم للموت ذكرًا وأكثرهم له استعدادًا، وسكت الرسول ﷺ ثم أقبل ﷺ على جمع من المهاجرين إلى المدينة بينهم عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وقال لهم: يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن إنه لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينتقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان.

ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا القطر من السماء.

وما نقضوا عهد الله عز وجل ورسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فأخذوا ما كان فى أيديهم.

---

(١) سيرة دخلان على هامش الشيرة الحلبية ص١٥١ ج٢.

وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم(١).

هكذا كانت البداية نصائح وتعاليم من رسول الله ﷺ إلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يتوجوا بها حياتهم وتكون لهم سنة وشرعة ومنهاجًا يتحرك بها ركبهم المبارك على دروب الحياة وطرقاتها.

ثم وجه رسول الله ﷺ الحديث إلى بطل هذه السرية وقائد هذه الكتيبة المباركة من كتائب الحق توجه بالحديث إلى عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة وقد كان هذا الرجل من الذين أسلموا قديمًا وهاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهجرة المدينة بعد رسول الله ﷺ وقد شهد عبد الرحمن بن عوف هذا غزوة بدر وكان بطلاً من أبطالها.

ولما هاجر عبد الرحمن إلى المدينة آخى الرسول ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع فكان نعم الأخ فى الإسلام حيث ذهب إلى السوق وباع واشترى وربح وأكل من عمل يده ولم يأخذ من مال أخيه سعد بن الربيع شيئًا.

ترى ماذا قال له رسول الله ﷺ؟.

تقدم رسول الله ﷺ من عبد الرحمن بن عوف فأمره أن يعد نفسه للذهاب إلى سرية يبعثه عليها فما كان من عبد الرحمن إلا الطاعة أطاع رسول الله ﷺ، اقترب الرسول من عبد الرحمن وأدناه منه ثم أمره أن يجلس بين يديه فجلس عبد الرحمن بن عوف فنزع ﷺ عمامة سوداء وعمم بها عبد الرحمن وقال له وهو يعممه: هكذا يا بن عوف هكذا، فإذا بابن عوف وقد تحلى بالعمامة التى عممه بها رسول الله ﷺ وأصبح صاحب هيئة معروفة بين المسلمين مشهودًا له بالبأس على الكفار.

وبعد ذلك أمر الرسول بلالاً فقال: ادفع إليه اللواء يا بلال، فقدم بلال اللواء لعبد الرحمن بن عوف ثم قال ﷺ: (خذها يا بن عوف اغوا جميعًا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) فأخذ عبد الرحمن اللواء ثم أكمل رسول الله وصيته إلى ابن عوف قائلاً إن استجابوا لك وأطاعوك فأسلموا فتزوج ابنة ملكهم.

---

(١) سيرة دخلان ج٢ ص١٥١.

بعد ذلك انطلقت سرية الجهاد إلى دومة الجندل وخرجت جحافل المقاتلين متجهين إلى الشمال من المدينة قاصدين بلاد الشام وطال مسير الفرسان حتى نزلوا بالقرب من هذا الحصن المسمى بدومة الجندل.

وأرسل عبد الرحمن بن عوف من يبلغهم بوصول رجال الإسلام لكى يدعوهم للدخول فى هذا الدين الحنيف وما إن وصل رسول ابن عوف وأبلغهم بما جاء المسلمون من أجله أبوا ورفضوا هذا العرض وكان ردهم الأول والأخير بأنه لا يحكم بينهم وبين المسلمين إلا السيف ولكن ابن عوف لم يفقد الصبر على دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وانطلق يرسل الرسول تلو الآخر إلى داخل حصنهم يعرفهم أن الإسلام دين السماحة والرحمة وأن الرسول ﷺ حذرهم من الغدر وقتل الأطفال والشيوخ والمبالغة فى أخذ المغانم وظل عبد الرحمن بن عوف على هذه الحال اليوم الأول واليوم الثانى حتى اليوم الثالث وإذا به يرى ملكهم وهو الأصبغ بن عمرو الكلبى يخرج فى ثلة من القوم وهو ملكهم ورئيسهم وقد أعلن أسلامه وعاهد على الصدق والالتزام بذلك ومن أسلم معه وأكمل عبد الرجمن بن عوف بعد ذلك مهمته مع بقية أهل هذه القرية بأن أقام بقيتهم بالجزية فإما القتال أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون وقد كان له ما رغب وأراد، وجلس عبد الرحمن بن عوف بعد أن أدى مهمته التى كلفه بها رسول الله ﷺ جلس يفكر فى كلمات رسول الله ﷺ ووصيته بأن يتزوج ابنة ملكهم فقد خشى أن يكتفى بهذه الكلمات فقد ظن أن رسول الله ﷺ أمر بالزواج من ابنة ملكهم إن أسلموا جميعًا ولكن هذا لم يحدث فقد أسلم معظمهم بينما دفع الباقى منهم الجزية وهم صاغرون ولم يدخلوا دين الإسلام فأرسل ابن عوف رسولاً إلى النبى ﷺ وقد حمله كتابًا يقول فيه: إنهم لم يسلموا جميعًا ومن لم يسلم فقد عالجناه بإقامة الجزية وفرضها عليه ويستأذن رسول الله ﷺ مرة أخَرى فى الزواج من ابنة ملكهم الأصبع بن عمرو الكلبى.

فجاءه التأكيد من المدينة بأن رسول الله يأمره أن يتزوج تابنة ملكهم فتأكد ابن عوف من هذا الأمر واتجه إلى ملكهم فليتم وصية رسول الله لكى يكون بينهم وبين المسلمين أوصار قوية.

التقى عبد الرحمن بن عوف بالأصبغ بن عمرو الكلبى وذكر له وصية رسول الله له بالزواج من ابنته وهو ملك على هؤلاء القوم وقال عبد الرحمن: لقد رغبت فى الزواج من ابنتك ماضر فماذا تقول؟ فقال الأصبغ الكلبى: السمع والطاعة لرسول الله ﷺ ومرحبًا بك صهرًا لى وهل هناك أشراف وأنبل من رجل بشر بالجنة ويعد من العشرة المبشرين بها وقد تميز بالصلاح والتقوى.

فقال عبد الرحمن: بارك الله فيك وشكر الله لك صنيعك وإسلامك وطاعتك، وشارك أهل قرية دومة الجندل زفاف ابنة ملكهم بالأفراح وزفوا ابنة ملكهم على صاحب رسول الله ﷺ.

عاد القائد المظفر وعروسه ورجال دومة الجندل بينهم ملكهم وصهر ابن عوف الأصبغ بن عمرو الكلبى ولما دخل عبد الرحمن بن عوف ومعه ماضر بنت الأصبغ زوجه وبصحبته أهلها فرحت بهم مدينة رسول الله ﷺ وتحولت السرية المقاتلة إلى سرية حب ودعوة ورحمة ونسب وصهر وضربت المثل فى سماحة الإسلام وبره بمن دخل فيه وانضم إلى لوائه فى ذى القعدة من العام السادس الهجرى خرج الرسول ﷺ للعمرة فى جمع من أصحابه يبلغ عددهم ألف وأربعمائة[١] من المسلمين المهاجرين والأنصار ومن لحق من حلفائه العرب وأخذ معه ﷺ سبعين بهيمة من الهدى والأضاحى (الأغنام) وقيل: إن عدد المسلمين فى ذلك سبعمائة فقط أى كل عشرة لهم هدى واحد بينما الرسول ﷺ فى المسير وقد أحرم مع أصحابه ليأمن الناس ويعلموا أن مقصده زيارة بيت الله الحرام تعظيمًا له وتكريمًا لا لغرض غير ذلك، التقى ﷺ برجل يسمى «بشر بن سفيان الكعبى» فقال له: يا رسول الله قد علمت قريش بخروجك وخرجت برجالها وإبلها وهم فى مكان قرب مكه ويتزعم فرسانهم خالد بن الوليد فقال ﷺ يا ويح قريش!!.

---

(١) التاريخ الإسلامى العام د. على إبراهيم حسن ص ٢٩٧.

عمرة القضاء

سميت عمرة القضاء بهذا الاسم لأنها كانت قضاء عن العمرة التى صدت قريش المسلمين فيها عند دخول مكة، ومنعتهم من الاعتمار والطواف حول الكعبة.

وكان عام قد انقضى منذ توقيع أو عقد صلح الحديبية، وأصبح يحق للمسلمين أن يدخلوا مكة ويعتمروا (حسب ما نص عليه الصلح) فخرج رسول الله ﷺ على رأس ألفين من الرجال المسلمين غير النساء والأطفال والصبيان، وكان يتقدمهم مائة فارس، وكان بعض المسلمين يحملون السيوف والرماح خوفًا من غدر أهل مكة بهم، وعدم التزامهم بالصلح.

وقبل أن يدخل الرسول ﷺ مكة ومعه المسلمون، كانت قريش قد أخلتها له، وأمر الرسول ﷺ كتيبة من المسلمين أن تنتظر خارج مكة وهى تشهر سلاحها، تحسبًا لأى غدر مفاجئ من أهل مكة المشركين.

ثم طاف ﷺ بالكعبة هو ومن معه، سبعة أشواط، ثم سعى على راحلته بين الصفا والمروة، ثم نحر هديه (الأضحية) وحلق رأسه.

ثم أمر ﷺ أن يذهب مائتا رجل ممن اعتمروا، ويرسلوا إخوانهم المنتظرين خارج مكة ليقضوا مناسكهم.

وظل رسولنا الكريم ﷺ والمسلمون ثلاثة أيام فى مكة، ثم أرسلت إليه قريش تطلب كمنه الرحيل، فخرج ﷺ هو ومن معه عائدين إلى المدينة، وقد نزل فى عمرة القضاء قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ٢٧).

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

لا شك أن إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد يعد نصرًا كبيرًا وفتحًا عظيمًا فتحه الله على المسلمين، كما فتح عليهم من قبل خيبر.

وقد كان إسلامهما فى السنة الثامنة من الهجرة، وبعد إسلام خالد بن الوليد أسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول.

غزوة مؤتة:

كانت هذه الغزوة فى السنة الثامنة للهجرة.. ومؤتة تلك كانت عبارة عن قرية صغيرة فى شمالى الجزيرة العربية على حدود الشام.

وكان النبى ﷺ قد بعث برسالة إلى الحارث الغسانى (ملك الغساسنة) مع الحارث ابن عمير الأزدى، وكان الغساسنة خاضعين لملك الروم، ويرون أنفسهم أقوياء وأصحاب سلطان، لقوة الروم (سادتهم) وسلطانهم، لذلك قتلوا حامل رسالة الرسول ﷺ وسخروا بمن أرسله.

وكان ذلك عدوانًا صريحًا على المسلمين يستحق التأديب والرد من جهة، ومن جهة أخرى كان الأوان قد آن لتطهير الجزيرة العربية من أعداء الإسلام، بعدما تم تطهيرها من اليهود.

فأعد الرسول ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، لقتال الغساسنة.

ولأول مرة لم يعين ﷺ قائدًا واحدًا للجيش.

بل عين ثلاثة: زيد بن حارثة، فإن أصيب أو قتل فجعفر بن أبى طالب.. فإن قتل أو أصيب فعبد الله بن رواحة.

فعل ذلك رسول الله ﷺ، لإحساسه بمدى شراسة وصعوبة المعركة، كما ترك هذا التصرف إحساسًا لدى المسلمين بخطورة الأمر.

وسار جيش المسلمين نحو الشمال، وما أن وصل قرب مؤتة حتى فوجئ المسلمون بأنهم يواجهون جيشًا يزيد تعداده عن مائة ألف بعضهم من الروم وبعضهم من الغساسنة وبعضهم من القبائل العربية التى ما زالت على شركها بالله.

وراح المسلمون يتشاورون وسط مشاعر من الإحباط ومظاهر الارتباك والحيرة، وأراد البعض أن يخبروا الرسول ﷺ بالوضع ليرشدهم إلى ما يجب أن يفعلوه، أو ليرسل لهم مددًا، ولكن عبد الله بن رواحة صاح فى الناس قائلاً: أيها المسلمون: والله إن التى خرجتم فى طلبها هى الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا عتاد، ولا بقلة ولا بكثرة، فانطلقوا بنا إلى إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

فقال الناس: صدق والله ابن رواحة.

وانطلقوا يحاربون أعداءهم، وبدأت المعركة، وسرعان ما ظهر عدم التكافؤ بين جيش المسلمين وجيش أعدائهم، إلا أن المسلمين صمدوا وقاتلوا قتالاً شديدًا حتى استشهد زيد بن حارثة، فاستلم الراية منه جعفر بن أبى طالب، الذى راح يقاتل ببسالة منقطعة النظير، حتى قطعت يمينه التى يمسك بها الراية، فأمسك بها بشماله، فقطعت هى الأخرى، فاحتضن الراية بعضديه ورفعها عالية حتى جاءته ضربة شقته نصفين، واستشهد، فأثابه الله بجناحين يطير بهما فى الجنة، حيث شاء! ومن يومها وهو يسمى (جعفر الطيار)! ثم رفع عبد الله بن رواحة، وقاتل بضراوة شديدة حتى استشهد، فتولى أمر القيادة خالد بن الوليد (الذى كان قد أسلم قبل تلك الغزوة بقليل) الذى سرعان ما أدرك بعبقريته ومهارته العسكرية، أن الاستمرار فى المعركة سيؤدى إلى فناء جيش المسلمين دون طائل، لذلك قرر أن ينسحب من المعركة، ولكن دون أن يشعر أعداءه بضعف موقفه.

فأعاد تنظيم الجيش بحيث يوحى لأعدائه بأن وجوهًا جديدة انضمت لجيش المسلمين، وأن مددًا إضافيًا قد جاءهم فجعل مقدمة الجيش هى مؤخرته، وجعل ميمنته ميسرته فى الوقت الذى يتأخر فيه ويرتجع قليلاً قليلاً إلى الوراء، فخشى الرومان إن تبعوهم أن يكون المسلمون يخدعونهم ويجرونهم إلى مصيدة ليلقونهم فى الصحراء، فتراجع العدو وتركهم ينسحبون.

وهكذا أنقذ خالد بن الوليد جيش المسلمين من الفناء وعاد إلى المدينة.

إلا أن المسلمين بالمدينة لم يقبلوا انسحابهم وعدوه فرارًا، وراحوا يهزءون بهم ويقولون لهم: فررتم فى سبيل الله، وسيموهم: «الفرار» ولذلك خجل كثير منهم

وامتنعوا عن الظهور أمام الناس، إلى أن قدر الرسول ﷺ موقفهم وسماهم «الكرار» مدركًا الأسباب التى جعلتهم ينسحبون.

وقد أضمر خالد بن الوليد ذلك فى نفسه، وظل يتحين الفرصة ويتشوق للقاء الروم ليصرعهم ويثأر للإسلام ولنفسه، وهنا ما تحقق بالفعل إبان فتح الشام فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ.

فتح مكة

قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾.

وقد جرى هذا الفتح العظيم فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وكانت قريش قد نقضت عهدها مع المسلمين والصلح الذى عقدته معهم فى الحديبية، عندما انضمت فى القتال إلى «بنى بكر» حليفتها، ضد «خزاعة» حليفة المسلمين، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وكان لا بد من نجدتها! فأعد الرسول ﷺ جيشًا من المسلمين، لم تشهد حزيرة العرب مثله من قبل، إذ كان تعداده عشرة آلاف مقاتل، وزحف قاصدًا فتح مكة.

وجعل الرسول ﷺ قادة الفتح أربعة هم:

الزبير بن العوام.

خالد بن الوليد.

أبو عبيدة بن الجراح.

سعد بن عبادة.

وعلى مقربة من مكة (وبالتحديد عند مكان يسمى الجحفة) التقى العباس (عم الرسول ﷺ) بجيش المسلمين (وكان العباس قد أسلم ولكنه باتفاق مع الرسول كان يكتم إسلامه ليبقى فى مكة عينًا للمسلمين وللرسول ﷺ).

وهال العباس ما رأى، وخشى أن يدخل جيش المسلمين مكة فى حالة حرب، فلا تقوم لقريش بعدها قائمة، فاستأذن العباس الرسول ﷺ فى أن يأخذ بغلته ويدخل بها مكة ليحذر أهلها من جيش المسلمين، وينصحهم بالدخول فى الإسلام وطاعة رسول الله ﷺ.

وفى الطريق قابل أبا سفيان، الذى كان قد خرج من مكة والرعب يتملكه، ليتجسس الأخبار ويتأكد من حقيقة ما سمعه عن زحف المسلمين نحو مكة.

قال العباس لأبى سفيان: ويحك يا أبا سفيان، لقد خرج لكم رسول الله فى قوة لا تقهر، فاركب خلفى بغلة رسول الله لعلى أنال لك النجاة، فركب خلفه، ولما رآه المسلمون حاولوا القضاء عليه، ولكن العباس كان يهتف بهم: قد أجرته.

وعرض العباس الأمر على الرسول ﷺ، ولكن الرسول بحكمته أراد أن يبقى الخوف فى نفس أبى سفيان لبعض الوقت، فقال لعمه العباس: خذه إلى رحلك وأتنى به فى الصباح.

وفى الصباح استقبل الرسول ﷺ أبا سفيان، بعدما كان قد فقد كل أمل فى النجاة، وكل ما كان يتمناه أن يفلح فى منع الأذى والذل عن قومه.

هتف به الرسول ﷺ: ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!.

فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى، ما أحلمك، وما أكرمك وما أوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئًا بعد، فعاد الرسول ﷺ يسأله: ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنى رسول الله؟.

فأجاب أبو سفيان فى اضطراب: أما هذه ففى النفس منها شىء.

(لو أقر أبو سفيان لمحمد ﷺ بالرسالة فقد ذهبت زعامته وزالت دولته التى حارب السنين فى سبيلها).

وهنا غمزه العباس وحذره، قائلاً له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

فقال أبو سفيان وهو يلتمس عنقه بأصابع يده: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وتنفس العباس الصعداء، فإعلان أبى سفيان إسلامه معناه دخول الجيش الإسلامى مكة دون أى مقاومة.

ولأن العباس كان دبلوماسيًا ماهرًا، فقد قال لابن أخيه ﷺ: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل محب للشرف والفخر، فاجعل له شيئًا يكون فى قومه.

فقال الرسول ﷺ: نعم.. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.. ومن دخل الكعبة فهو آمن.. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

فانبسطت أسارير أبى سفيان، وسارع بالمضى والعودة إلى مكة، فدخلها وهو يهتف: يا معشر قريش.. إن محمدًا قد جاءكم بجيوش لا قبل لكم بها، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد.

بعدها دخلت جيوش المسلمين مكة، دون مقاومة تذكر من أهلها المشركين.

وطاف المسلمون بالكعبة وحطموا ما بها من أصنام وهم يهتفون: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

وبعد أن هدأت الأحوال فى مكة، وبعد أن بات المسلمون ليلة فيها، وقف رسول الله ﷺ بباب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ ثم تساءل ﷺ: ما تقولون، وماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ فقال أحدهم: نقول خيرًا، ونظن خيرًا.. أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال ﷺ: وأنا أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء.

غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

بعد أن فتح الله على المسلمين وأمكنهم من فتح مكة والقضاء على أى مظهر أو وجود للشرك بها، بدخول قريش فى الإسلام، لم يعد باقيًا فى فى كل الجزيرة العربية باقيًا على الشرك بالله وعبادة الأوثان إلا جموع هوازن التى كانت تنتشر بطونهم انتشارًا واسعًا فى نجد، وجموع ثقيف التى كانت تسكن الطائف (التى تقع على الجنوب الشرقى من مكة).

وكان الرعب والفزع قد استولى على قلوب هوازن بعدما سمعوا بوقوع مكة فى قبضة المسلمين واستسلام قريش بعد إعلان زعيمها أبى سفيان إسلامه!.

وقالوا مثلما قال يهود خيبر من قبلهم: إن محمدًا لم يلق محاربين أشداء وإن كانت قريش قد فرطت فى أوثانها وتخلت عن زعماتها الدينية، فنحن لن نفرط فى أوثاننا أبدًا، وسنعلى راية هبل!.

وجمعهم زعيمهم مالك بن النصرى (من بنى نصر بن معاوية بن بكر) وقال لهم: سنغزوهم قبل أن يغزونا!.

وتحالفت ثقيف وقبائل أخرى مع هوازن.

وكان مالك بن عوف يدرك جيدًا أن هذه هى آخر محاولة يقوم بها عبدة الأوثان ضد الإسلام وضد دين التوحيد، ولذلك فكر بعمق حتى يحصل على النصر، فاختار للموقعة أرضًا تحاط بها مرتفعات جبلية، لها مسالك لا تعرفها أغلب المسلمين، ولا يجيدون القتال فيها، وحشد مالك بن عوف خلف جنوده نساءهم وأطفالهم وكل ما يملكونه، حتى يدرك المحارب أن هزيمته ستكون فناء لأهله وماله، وبذلك يستميت فى القتال ولا يفر من ساحة المعركة.

وعسكر بجنوده فى أعالى الجبال، بحيث يصبحوا مشرفين مسيطرين على الطرق الضيقة أسفلهم، والتى حتمًا سيمر فيها جيش المسلمين.

على الجانب الآخر كان رسول الله ﷺ قد علم بأن هوازن وثقيف يحشدون جنودهم لقتال المسلمين، فأعد جيشًا كبيرًا بلغ تعداده عشرة آلاف مسلم (هم من كانوا معه فى فتح مكة) بالإضافة إلى ألفين من الطلقاء (أو المكيين الذين أعطاهم الرسول ﷺ الأمان يوم فتح مكة).

وسار جيش المسلمين نحو وادى حنين حيث ساحة القتال المتوقعة، فى شىء غير قليل من الزهو والغرور، فقريش أو (عدوهم الأكبر) همدت أنفاسها بالأمس القريب، وأكثر من ذلك، هناك من أفرادها الكثيرون الذين التحقوا بجيش المسلمين لمحاربة هوازن وثقيف (ربما بدافع أن يكون لهم نصيب فى الغنيمة والأسلاب).

وقبل قريش كانت أنفاس اليهود (أعداء الإسلام) قد خمدت هى الأخرى وانتهت آخر معاملهم فى خيبر... فماذا عسى أن تكون هوازن وثقيف؟! كان الزهو والغرور يتملك المسلمين وهم زاحفون للقاء عدوهم فى وادى حنين! وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بالمرتفعات المحيطة بوادى حنين، إذا بهم يفاجئون بالسهام ترشقهم من أعلاهم، وبالصخور تقذف عليهم من كل جانب، وكأنها المطر أو الجراد المنهمر من السماء، فتفرقوا وتقهقروا بعد أن أصيب عدد كبير منهم.

ولاحت الهزيمة للمسلمين فى الأفق.

وعبر بعض ضعاف النفوس ــ ممن أسلم حديثًا ــ عما فى نفسه من حقد وحسد وكراهية للمسلمين وللرسول ﷺ، قال أبو سفيان: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر.

وقال آخر:

ألا بطل السحر اليوم؟.

وقال ثالث: اليوم أدرك ثأرى من محمد.

فى تلك اللحظات التى عم فيها الاضطراب صفوف جيش المسلمين، وبات المسلمون أقرب إلى الهزيمة، كان الرسول ﷺ يقف مكانه كالطود الشامخ الذى لا يتزعزع وحوله رهط من آل بيته الكريم: العباس (عمه) وعلى بن أبى طالب، وأبو سفيان وربيعة الحارث بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، ورهط من المهاجرين منهم: أبو بكر وعمر بن الخطاب، ورهط من الأنصار، وراح الرسول ﷺ ينادى: يا معشر الأنصار... يا معشر المهاجرين.. هلموا

إلىَّ.. يا أنصار الله.. يا أنصار رسول الله... هلموا إلى.. أنا النبى لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب.

ثم نظر إلى عمه العباس (وكان صوته شديدًا) وقال له اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا أصحاب البيعة (يقصد بيعة الرضوان يوم الحديبية)... هلموا إلى رسول الله.

وما هى إلا لحظات حتى أجاب المسلمون صالحين: لبيك.. لبيك.

وتوافد المسلمون المنسحبون وأقبلوا على رسول الله ﷺ والتفوا حوله.

وبدأ من جديد هجومهم على المشركين من هوازن وثقيف.

وتحول المشركون من مركز الهجوم إلى مركز الدفاع بعدما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأظهر عليهم المسلمين، فاكتسحوهم وجعلوهم يولون الأدبار تاركين نساءهم وأطفالهم وكل ما يملكون فى ساحة المعركة غنيمة للمسلمين.

وفر قائدهم مالك بن عوف هو وأشراف قومه ولاذوا بالطائف وتحصنوا به مع من تحصنوا من ثقيف.

وتعقبهم جيش المسلمين.

وحاصروهم بالطائف...

وطال أمد الحصار (بضع وعشرون يومًا) دون أن يستسلم المشركون من أهل الطائف، فاستشار بعض رجاله من ذوى الرأى، فقال له أحدهم: يا رسول الله هم كثعلب فى جحر الآن، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لن يضرك، فأذن رسول الله للمسلمين بفك حصارهم والرحيل، وفى طريق العودة قال رجل من المسلمين: يا رسول الله ادع على ثقيف.

فقال رسولنا الكريم ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم».

وكانت استجابة الله سبحانه وتعالى لدعاء رسوله سريعة فلم يكد يمضى عام واحد حتى كانت هوازن وثقيف وكل من بالطائف قد دخلوا حظيرة الإسلام! وبذلك أصبحت الجزيرة العربية ولأول مرة فى تاريخها دولة واحدة، لها دين واحد، وهو دين الإسلام.

سرية بنى تميم:

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢٠، ٢١).

فى هذه السرية المباركة درس عظيم يجيب عن سؤال هام يلح على أذهان كثير من الناس، هذا السؤال هو: بمن نفاخر؟ أو بما نفاخر؟ وقد أجابت الآيات التى صدرنا بها هذه الكلمات بأن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بيننا وسعى للغنى والبحث عن الأموال وقد قلل القرآن الكريم فى الآيات السابقة من قيمة هذا كله بل وصفه فى حجمه البسيط الذى لا يستحق كل هذا الصراع القائم بين الناس.

وفى عودتنا إلى أحداث هذه السرية المباركة سنجدها تدير حوارًا عظيمًا يفاخر فيه البعض بالدنيا والبعض الآخر بالآخرة ومتاعها ورضوان الله على عباده الداعين للإصلاح العاملين به المفاخرين بتقواهم وعملهم الطيب.

وكان لهذه السرية سببًا مباشرًا عندما بعث الرسول ﷺ بشر بن سفيان إلى بنى كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بنى تميم على بئر ماء وعندما وصل إليهم بشر بن سفيان لما طلب بشر من بنى كعب الصدقات قدموها له طائعين راضين.

فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لم تعطوهم أموالكم؟.

ثم اعترضوا بشرًا ومنعوه من أخذ صدقات بنى كعب.

فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد فى ديننا من دفع الزكاة!!.

فقال لهم بنو تميم: والله لا ندعه يأخذ بعيرا واحد مما أعطيتموه ومنعوا ذلك عن بشر.

ولما رأى بشر ﷺ ذلك عاد إلى المدينة مسرعًا وأخبر النبى ﷺ بما حدث.

عند ذلك دعا الرسول ﷺ عيينة بن حصن الفزارى وأمره على سرية من خمسين رجلاً هم خيرة فرسان العرب ليس منهم مهاجرى ولا أنصارى انطلق، عيينة بن

حصن الفزارة ﷺ بعد أن تزود بنصائح الرسول الكريم ﷺ إلى بنى تميم ليقف على ما ورد للمدينة من أخبار منعهم صدقات بنى كعب وطردهم بشر بن سفيان ﷺ الذى أرسله لهم الرسول ﷺ إلى بنى كعب ثم أكمل عيينة الفزارى ﷺ السير إلى تميم فكان يسير ليلاً ويستريح نهارًا حتى لا يشيع خبر خروجه إليهم ولا يرهق فرسانه بالمسير فى حر الشمس الشديد واستطاع عيينة بن حصن الفزارى أن يحقق المفاجأة على عدوه ويقتحم ديارهم والقضاء على أئمة العصيان بينهم واستطاع أن يأسر عددًا من رجالهم يزيد على العشرة وأخذ معهم نساءهم وصبيانهم وجاء بهم إلى المدينة فأمر النبى ﷺ بحبسهم فى دار بنت الحارث لم تمض فترة طويلة حتى جاء فى أثرهم وفد من شيوخ بنى تميم وأشرافهم منهم الأقرع بن حابس التميمى وعطارد بن حاجب التميمى وغيرهم من أشراف القبيلة فلما قدم هذا الوفد دخل المسجد ونادوا الرسول ﷺ من وراء حجراته يقول أحدهم: يا محمد اخرج إلينا[1]!.

كان صياحهم غير مرغوب لعلو صوتهم مما آذى الرسول ﷺ فخرج ﷺ إليهم.

فقالوا: يا محمد قد جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

قال ﷺ: نعم أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب أحد شيوخهم وقال: «الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله الذى جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة فمن مثلنا فى الناس؟! ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم؟! فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا».

ثم جلس الرجل بعد أن فاخر بنسبه وحسبه وعدد قومه وعدتهم، فأشار الرسول ﷺ إلى أحد أصحابه وهو ثابت بن قيس وقال له: قم فأجب الرجل فى خطبته.

فقام ثابت وقال: الحمد لله الذى خلق السموات والأرض قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ولم يك شىء قط إلا من فضله ثم كان من قدرته أن جعلناه ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسبًا وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ج٣ ص١٥٥ أحداث سنة ٩ هـ.

برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه: أكرم الناس أنسابًا وأحسن الناس وجوهًا وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن كفر جاهدماه فى الله أبدًا وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم(١).

هكذا كان رد المسلمين والإسلام على أهل التفاخر بالأنساب والأحساب ولم يكتف الوفد بهذا بل وقف أحد أشرافهم يقول للرسول ﷺ:

يا محمد ائذن لشاعرنا.

فقال ﷺ: نعم.

فقام رجل منهم يسمى الزبرقان بن بدر وكان شاعرًا فصيحًا فأنشد يقول:

نحن الكرام فلا حى يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا
من الشواء إذا لم يؤنس القزع

وظل يفاخر إلى أن قال:

فمن يقادرنا فى ذاك يعرفنا...
فيرجع القول والأخبار نستمع(٢)

نظر الرسول ﷺ حوله فلم يجد حسان بن ثابت شاعره وشاعر المسلمين فأرسل من يجىء به من داره، فجاء حسان من داره وأنشد يقول وهو فى الطريق:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا
على كل باغ من معد وراغم

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ج٣ ص ١١٦ دار إحياء التراث بيروت.

(٢) انظر تاريخ الطبرى ج٣ ص ١١٧ دار إحياء التراث بيروت.

وظل حسان ينشد حتى وصل إلى مجلس رسول الله ﷺ وسمع شعراء القوم فقال الرسول ﷺ: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فأنشد حسان يقول:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

فلما فرغ حسان من قوله، قال شاعر بنى تميم: إن هذا الرجل موفق لخطيب رسول الله أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا.

ولأصوات المسلمين أعلى من أصواتنا، وانتهى هذا الحوار الطويل بإسلام وفد بنى تميم ومبايعتهم الرسول ﷺ ولكن القرآن لم يترك شيئًا دون تشريعه للمسلمين جميعًا فنزلت الآيات تنكر صياحهم خلف حجرات الرسول ﷺ فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٤، ٥) .

غزوة تبوك فى رجب سنة ٩ هجرية:

تبوك مدينة صغيرة على مسافة سبعمائة كيلو مترًا إلى الشمال من المدينة المنورة وهى الآن مدينة سعودية هامة وهى واحة ذات ماء وشجر وكانت تبوك مكانًا لتجمع الروم الذين كانوا يبيتون شرًا للمسلمين وكانت الروم هى أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض فى ذلك الزمان وقد عرفنا فيما تقدم فى سرية مؤتة أن الروم تعرضوا لسفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى حينما كان السفير يحمل رسالة النبى ﷺ إلى عظيم بصرى وهى مدينة بأسفل الشام وأن النبى ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطدامًا شديدًا فى مؤتة ورغم أن المسلمين لم ينجحوا فى إلحاق الهزيمة بهؤلاء المشركين إلا أن وقع غزوة مؤتة كان له أثرًا عظيمًا فى نفوس العرب لجرأة المسلمين وشجاعتهم.

وقد أزعج الرومان أن بعض القبائل الموالية للرومان بدأت فى التفكير بالاستقلال عن الرومان والانضمام للمسلمين مما يهدد دولة الرومان ويهدد نفوذها الشامية التى تجاور العرب فبدأ هرقل الروم فى إعداد العدة للقضاء على المسلمين فلم يمض على غزوة تبوك سنة حتى كان قيصر الروم قد أعد العدة وهيأ جيشًا من الرومان والعرب التابعة لهم آل غسان وغيرهم وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة.

وكانت الأخبار تتوارد إلى الرسول ﷺ والمسلمين فى المدينة بأن الرومان يعدون العدة لغزو المسلمين وقد خاف المسلمون من هذا التهديد وتحدثوا عن خطورته وبدأ المنافقون يهولون فى أعداد الرومان حتى يخيفوا المسلمين ويرجفوهم.

وجاءت الأخبار للمسلمين تقول: إن هرقل قد هيأ جيشًا ضخمًا بلغ عدده أربعين ألف مقاتل وأعطى قيادته لقائد مشهور من أعظم قادة الروم وأنه ضم إليه قبائل كثيرة مثل قبيلة لخم وجزام وغيرها وأن مقدمتهم تتجه إلى تبوك.

جاءت هذه الأخبار والصيف على أشده من الحر وكان الناس فى عسرة وفقر وبلاء من شدة الفقر وعسر الحال أما بعض الأغنياء فقد أحبوا الظل فى هذا الوقت الحار وكرهوا الخروج للجهاد والخروج إلى تبوك صعب لبعد المسافة ووعورة الطريق، فى وسط كل هذه الظروف سارع الرسول ﷺ إلى السعى لغزو الرومان لكى لا يترك الإرجاف والخوف وتقوّل المنافقين يسيطر على المسلمين وكان على الرسول ﷺ أن يقدم لغزوهم تنفيذًا لقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (التوبة: ١٢٣).

فقد كان نزول هذه الآيات مترافقًا مع تجمع الروم بقيادة هرقل فى الشام على مقربة من قرية تبوك وانضمت إليهم قبائل أضمرت سوءًا للمسلمين ومنها أيضًا البلقاء وعاملة وغسان لقد كانت دعوة الرسول ﷺ المسلمين للخروج إلى تبوك فى ظروف صعبة وكان الناس فى عسرة شديدة وحر شديد وفقر يعم أرجاء البلاء، فدعى رسول الله ﷺ أصحابه للتبرع بالمال والبذل والعطاء لتجهيز الجيش وأمر أغنياء المسلمين وأهل اليسار والمال بتجهيز إخوانهم الفقراء كى لا يحرموا فضل الجهاد وليزيدوا فى قوة المسلمين.

وكان المشهد فى ذلك اليوم عظيمًا أثنى عليه القرآن الكريم بما فى ذلك المشهد من روعة وإيمان وجمال: فقد جاء سبعة من الأنصار بينهم عمرو بن الجموح وعبد الله بن المعقل المزى يطلبون من الرسول ﷺ حملهم على الدواب للخروج معه فى يوم تبوك.. وكانوا فقراء لا يملكون الدواب التى تحملهم.

فقال ﷺ مجيبًا عليهم: لأ أجد ما أحملكم عليه(١).

فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع خوفًا ألا يجدوا ما ينفقون وعلى ضياع فرصة الخروج للجهاد مع الرسول ﷺ فى سبيل الله.

فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾.

(التوبة: ٩٢)

كما ذكرنا فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون وعلى ضياع فرصة الخروج للجهاد مع الرسول فى سبيل الله.

وهكذا كانت دنياهم سعيدة بجهادهم حزينة عندما تحول ظروفهم دون الجهاد فى سبيل الله تفيض أعينهم بالدمع كما وصفهم القرآن العظيم وبدأ أصحابه الكرام تبرعهم السخى لإخوانهم وطاعة لأمر الرسول ﷺ كما تسابق المسلمون أيضًا فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات فكان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام مائتى بعير بما تحمله من أموال ومائتى أوقيه فتصدق بها ثم تصدق بمائه بعير أخرى بما حملت على ظهورها من أموال ثم جاء بألف دينار فنزها فى حجر رسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم».

ثم تصدق مرة ثانية وثالثة حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائه فرس سوى النقود، أما عبد الرحمن بن عوف فتصدق بمائتى أوقيه فضة وجاء أبو بكر بماله كله ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله وكانت أربعة ألاف درهم وهو أول من جاء بصدقته وجاء عمر بنصف ماله وجاء العباس بمال كثير وجاء طلحة ومحمد بن مسلمة وشاركت النساء بما يقدرن من حلى وذهب وغير ذلك.

ولم يبخل فى هذا اليوم سوى المنافقين فلم يشاركوا.

---

(١) السيرة لابن هشام.

الخروج إلى تبوك

خرج الرسول ﷺ بعد تجهيز الجيش إلى تبوك وقد جعل الرسول ﷺ محمد بن سلمة الأنصارى وخلف على أهله على بن أبى طالب وأمره بالإقامة فيهم فتحدث فى شأنه المنافقون فلحق برسول الله ﷺ فرده قائلاً:

ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى.

وخرج جيش الإسلام فى ثلاثين ألف مقاتل وهو عدد هائل لم يحدث أن خرج جيش للمسلمين بهذا العدد ولكن قلة شديدة من الطعام والدابة التى يركبونها جعلت فى الغزوة مشقة كبيرة فقيل: إن كل ثمانية عشرة يعتقبون بعيرًا واحدًا وربما أكلوا أوراق الأشجار وذبح الإبل التى كانوا يركبونها، نزل الجيش الإسلامى بعد مشقة فى السفر نزل فى تبوك فعسكر ﷺ وقد عد نفسه للقاءء عدوه، فلما سمع الرومان وحلفاؤهم بمجيء الرسول ﷺ إليهم أخذهم الرعب وكانت مفاجأة لهم فأصابهم الذعر وتفرقوا فى البلاد مما رفع شأن جيش الإسلام سمعة وشهرة وكان أول الغيث رجل يقال له يحنة بن روبة وهو أمير أيلة فصافح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية وتبعه أهل جرباء وجماعة يقال لهم أهل أذرج فأعطوه الجزية وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا وكتب لأمير أيلة يحنة بن روبة كتابًا جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى من كان معه من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر.

وبعث خالد بن الوليد لحاكم دولة الجندل فى أربعمائة وعشرين فارسًا وقال له: ستجده يصيد البقر فأتاه خالد فلما كان على مقربة من حصنه خرجت البقر تحك بقرونها باب القصر فخرج أكيدر حاكم دومة الجندل لصيدها وكانت ليلة مقمرة فتلقاه خالد من خيله فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ومثلها رماح وأقر بإعطاء الجزية فكتب له مثل يحنة على تبوك وأيلة وتيماء وعاد رسول الله ﷺ من تبوك ظافرًا منتصرًا.

الثلاثة الذين تخلفوا:

خرج رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى حر شديد فتخلف عنه المنافقون أما من خرج مع الرسول فهو مؤمن صادق ولكن كان هناك ثلاثة من المؤمنين الصادقين قد تخلفوا دون عذر واضح وقد ابتلاهم الله ثم عفا عنهم وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، لم يقدموا أعذارًا واهية مثل الآخرين الذين نافقوا بالأعذار التى قبلها منهم الرسول ﷺ لحلفهم كذبًا وقد فضحهم رب العزة لأنه يعلم نواياهم وإنهم لكاذبون ومنافقون وكان عددهم بضعة وثمانين رجلاً.

أمّا الثلاثة المؤمنون فقد اختاروا الصدق ولم يكذبوا فأمر الرسول ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة وقاطعوهم مقاطعة شديدة وتغير الناس منهم حتى ضاقت عليهم الأرض وقوطعوا خمسين ليلة ثم أنزل الله توبته عليهم فقال ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

ففرح الثلاثة فرحًا عظيمًا وفرح لهم المسلمون كثيرًا فبشروهم بهذا النبأ العظيم الذى نزل من السماء فانضموا إلى إخوانهم وعاد الوئام والصفاء وقد تحدث القرآن فى سورة التوبة كثيرًا عن غزوة تبوك.

سرية القرطاء:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩، ١٦٠).

هذه السرية المباركة تميزت بأحداثها السريعة الملاحقة وما بعد الأحداث يتحدث عن عفو رسول الله وحلمه وكيف أن الأخذ بيد الجاهل وقليل البصيرة يؤتى ثمارًا عظيمة.

وكان ثمامة بن آثار قطب هذه القصة وشيخها الذى تدور حوله أحداثها العجيبة هل تعلم أن هذا الصحابى الكريم أسلم بعد أن هم بإيذاء الرسول ﷺ؟ وهل تعلم أيضًا أن

تمامة بن آثال ثبت فى قومه أهل اليمامة عندما ارتدوا عن دينهم وخانوا عهدهم؟ كل هذه التساؤلات تطرحها أحداث هذه السرية المباركة.

بعث الرسول ﷺ القائد الإسلامى الفذ محمد بن مسلمة إلى القرطاء فى ثلاثين فارسًا وأقره أن يسير ليلاً ويستريح نهارًا حتى لا يراه عدوه ويعلم بخبره قبل الوصول.

انطلق محمد بن مسلمة ورجاله الأبطال وقد داعبت أقدام الخيل الرمال الناعمة وهى تقطع سكون الليل وكان من الرجال من يسبح بحمد الله ومنهم من يتأمل النجوم التى زينت بها سماء الدنيا فيزداد خشوعه لعظمة الخالق وأطلق بعضهم العنان لفرسه يسير على هدى الركب بينما انشغل هو بقراءة القرآن وما من أحد منهم إلا وقد أصبح لسانه رطبًا من ذكر الله سبحانه عز وجل.

وبينما الظلام يخيم على هذه الكوكبة المؤمنة سمع القائد صوت قوم من أهل القرطاء وهم بنو بكر بن كلاب وتقع بلادهم فى شمال نجد فأرسل إليهم رجلاً من أصحابه يسأل من هم؟.

فذهب الرجل واستطلع القوم ثم عاد إلى قائده فلما سأله من؟ قال: قوم من محارب وهم من أعداء المسلمين تقدم القائد والفرسان من عدوهم ببطء شديد وحرص لا يثير ضجيجًا حتى يفاجأ به عدوه ويحقق النصر بوسائل القتال الصحيحة.

ونزل قريبًا منهم ثم أمهلهم حتى بركوا الإبل حول الماء وألقوا بحاجياتهم وجلسوا بجوار البئر عند ذلك انطلق الرجال وحققوا المفأجاة الكبرى وأغاروا على أعدائهم قتلوا منهم الكثير وهرب البقية واستاق الأبطال غنائم كثيرة منهم من الإبل والشاة وغيرها ولم يتعرضوا للنساء عملاً بوصية رسول الله ﷺ وبحديثه وفور انتهاء هذه المصادمة التى لم تكن فى حساب محمد بن مسلمة انطلق الأبطال ﷺ وبسرعة عظيمة إلى بنى بكر بن كلاب وهم الهدف الأول للسرية والذى خرجوا من مكة لأجله ولما أصبح الرجال على مقربة من بنى بكر أرسل القائد محمد بن مسلمة أحد رجاله وهو عابد بن البشير فاستطلع الأمر أيضًا وبين لهم مواضع رجالهم وقوة عتادهم وفرسانهم فانطلقوا على علم وفهم بعدوهم وكيفية الوصول إليه وكانت غارة ناجحة حقق المسلمون فيها أهدافهم وأدبوا أعداء الإسلام وحطموا قواهم حتى لا تستخدم ضد الإسلام والمسلمين

وغنموا منهم غنائم كثيرة وفيرة تمثلت فى مائة وخمسين بعيرًا وثلاثة آلاف شاة وكان من بين أسرى هذه الغارة رجل له السبق فى محاولة إيذاء الرسول ﷺ إن هذا الرجل هو ثمامة بن أثال الحنفى وهو سيد أهل اليمامة وقد علم الرسول أن ثمامة جاء ذات يوم وأراد اغتياله ﷺ!! فدعا ربه أن يمكنه منه فاستجاب الله سبحانه عز وجل دعاء نبيه فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

جاء الرجال بغنائمهم وأسراهم فقسم الرسول ﷺ الغنائم بينهم بعد أن خمسها وجعل البعير بعشرة من الغنم.

وبعد أن قسم الغنائم بين أصحابه نظر إلى الأسارى فإذا بينهم ثمامة بن أثال وكان الرسول يعرفه جيدًا لكثرة تردده على مكة فقد كان سيد أهل اليمامة الذين أنعم الله عليهم بزرع وفير وحب كثير لكثرة أمطارهم وخصوبة أرض بلادهم فكانت اليمامة بمثابة ريف مكة يأتيها منها رزقها من الحب والتمر وغير ذلك من أطايب الطعام ناتج زراعاتها.

وإذا انقطع هذا العون من اليمامة وأصاب مكة جوع وقصور شديد فى الطعام تلك هى مكانة اليمامة بالنسبة لمكة فى هذه الأيام.

نعود إلى الرسول ﷺ وثمامة بن أثال لقد أشار ﷺ إلى ثمامة وقال للمسلمين: أتدرون من هذا[1] أتدرون من أسرتم؟ قالوا: لا يا رسول الله.

فقال ﷺ: إنه ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فأحسنوا إساره وشددوا رباطه وقيده.

عند ذلك قام المسلمون وربطوه بأسطوانة أمام مسجد الرسول ﷺ فى المدينة ثم دخل النبى الكريم إلى أهل بيته وقال لهم: اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه وأمر ﷺ بأن توضع ناقة يخصص له لبنها يأتيه صباحًا ومساء، كل هذه المكارم لا يستحقها ثمامة فى موضعه هذا الذى هو فيه فقد عكف بعض المسلمين على إرسال الطعام إليه ومنهم من يقدم إليه اللبن صباحًا فيشرب ويرتوى ويعيد رجل آخر الكرة مساء.

هذه أخلاق الإسلام الحنيف وشمائل رسوله ﷺ وصفات أصحابه الغر الميامين فهم فرسان حرب امتلأ قلبهم بالرحمة والعطف إن قاتلوا فهم اسود كواسر وإن أصابوا

---

(١) انظر السيرة الحلبية ص٧ ط المعرفة بيروت.

عدوهم وملكوه كانوا رحماء بينهم يفيضون هكذا علمهم نبيهم ودعاهم كتاب الله إليه عندما قال عز وجل ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ نعم رحماء بينهم شيمتهم العفو عند المقدرة.

مر الرسول ﷺ بثمامة فقال: ما لك يا ثمام؟ هل أمكن الله منك؟.

فأجابه قائلاً: نعم يا محمد قد كان ذلك.

وصار رسول الله ﷺ يأتيه فيقول: ما عندك يا ثمام؟.

فيجيب ثمامة قائلاً: عندى خير يا محمد إن تقتلنى تقتل ذا كرم وإن تعف تعف عن شاكر.

وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت انصرف الرسول ﷺ عن ثمامة وعاد فى اليوم التالى يسأله: ما عندك يا ثمام؟ فيجيب ثمامة إجابته السابقة حتى مر على ذلك ثلاثة أيام.

وبعد الأيام الثلاثة فكر المسلمون: ماذا يريد الرسول من ثمامة وقد حاول قتله وأهدر دمه ﷺ يقول أبو هريرة ﷺ فى ذلك: جعلنا نردد نقول: «نحن أصحاب رسول الله: نبينا ﷺ ما يصنع بدم ثمامة والله لأكلة لحم جزور ثمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة».

لقد استهان الصحابة بقتل ثمامة وقالوا: لو فداه الرسول لكان أحسن أى لو قبل فديته من مال وغنم وإبل أحب إليهم من قتله وانتظر الصحابة حكم نبيهم فى هذا الرجل.

ويجيء حكمه ﷺ مليئًا بالرأفة والرحمة نعم فهو الرحمة المهداة جاء ﷺ وقال لأصحابه: أطلقوا سراح ثمامة فقد عفوت عنك يا ثمامة!!.

فأطلقة الصحابة الكرام وفكوا قيده، فانطلق إلى ماء جار فى المدينة قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه ثم دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال فى ملأ من الناس: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

ثم اتجه إلى الرسول يتحدث بصراحة غير معهودة وجرأة محمودة فقال: «يا محمد والله ما كان على الأرض أبغض إلى منك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى، والله يا محمد ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك فقد أصبح دينك أحب

الدين كله إلى، والله يا محمد ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى» ثم أضاف ثمامة قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فلما كان المساء جيء له بما كان يأتيه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلاً وصد عنه ولم يشرب من لبن الناقة إلا يسيرًا فعجب المسلمون من ذلك الأمر ثم توجه ثمامة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول إنى خرجت من اليمامة معتمرًا وقد أخذتنى خيلك إلى هنا وأنا أريد أن أعتمر فماذا ترى؟.

فأمره ﷺ أن تكمل رحلته إلى مكة فيؤدى عمرته انطلق ثمامة بن أثال إلى مكة فلما قدم بطن مكة لبى وقال: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك لا شريك لك لبيك».

وبذلك كان ثمامة بن أثال ﷺ أول من دخل مكة ملبيًا فأخذته قريش واستغربوا هذا الأمر من حليفهم سيد أهل اليمامة ثمامة بن أثال.

وقال أهل قريش: «لقد اجترأت علينا يا ثمامة أنت صبوت يا ثمامة»[١] فأجابهم على الفور قائلاً: نعم أسلمت وتبعت خير دين إنه دين محمد ثم أقسم عليهم قائلاً: والله لا يصل إليكم حبة من حنطة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، نزلت هذه الكلمات على رءوس أشراف قريش كالصاعقة فأصابهم غيظ شديد وحقد مرير.

فأمسك بعضهم بثمامة بن أثال وهم البعض الآخر بضرب عنقه بالسيف لولا أن سمعوا رجلاً منهم يقول: دعوه اتركوه يا قوم فإنكم تحتاجون إلى اليمامة فخلوا سبيله.

خرج ثمامة من مكة متوجهًا إلى بلاده فى اليمامة ولما وصل إلى قومه منعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا من حب أو طعام أو تمر حتى أضر بأهل مكة الجوع وأصبحوا غير قادرين على هذه القطيعة وفكرت قريش مليًا ماذا تفعل فى هذا الأمر الخطير وجاء من يقول فيهم: نكتب لمحمد ليحث ثمامة على إرسال الحب والطعام لنا فقد أصبح حليفه، ومحمد نفسه يقول: إنما بعثت رحمة للعالمين فكتبوا إلى الرسول ﷺ كتابًا قالوا فيه:

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص١٧٢.

إلى محمد بن عبد الله من قريش ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع إنك تأمر بصلة الرحم إنك قد قطعت أرحامنا».

عند ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة ﷺ أن يخلى بينهم وبين الطعام وقال ﷺ «يا ثمامة خل بين قومى وبين طعامهم وحنطتهم».

هكذا كان عفو الرسول وحلمه هكذا كانت صلة الأرحام لها مكانة عظيمة فى نفس النبى ﷺ فلم يشأ أن يضغط على أعدائه من هذا الجانب وكان هذا الأمر يتيح للرسول المساومة ولكنه ﷺ لم يختر غير الرحمه التى أرسل من أجلها وأرسل بها للعالمين، وظل ثمامة بن أثال صحابيًا قوى الإيمان مستمسكًا بالعروة الوثقى وأقام باليمامة ولما ارتد أهل اليمامة فى قومه عن الإسلام ظل على دينه يحارب من أجله وكان ينهى أهل اليمامة عن اتباع مسيلمة الكذاب ويقول لهم: «إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه منكم» رحم الله ثمامة بن أثال ونضر قبره برياض الجنة فقد أسلم وحسن إسلامه.